إسلاميات
كاتب
مسيحي

2

محمد الرسالة والرسول
صدق الكاتب- وأمانة حامله

obeikandl.com

obeikandl.com

يفتتح نظمى لوقا كتابه «محمد الرسالة والرسول» بآية من سورة آل عمران: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ ،وبقول منسوب إلى أرسطو:«أفلاطون حبيب إلى نفسى بيد أن الحقيقة أحب إلى من نفسى».

وهو استهلال لا يحتاج إلى مزيد من التفصيل للمنهج الذى يتبعه مع كشف رأيه ووجهة نظره فى الرسول صلى الله عليه وسلم، فهو يقر برسالته وعبقريته الإنسانية النادرة،ولذلك لم يكن غريبا أن يهدى كتابه إلى :«السائرين فى الظلمة وإلى من بلوح لهم من أنفسهم فجر جديد،وأيضا إلى المهاتما غاندى الذى كان يصلى بصفحات من براهما،وآيات من التوراة والإنجيل والقرآن،ومات بيد هندوسى متعصب،شهيد دفاعه الصادق المجيد عن حرية العبادة لأتباع محمد».

لقد أراد هذه الفيلسوف المسيحى من خلال دفاعه عن الإسلام وعن رسوله الكريم،أن يشير إلى أن الأديان كلها لله،وليس أن تكون مؤمنا بدين منها أن تنكر الدين الآخر،لكن الحقيقة التى يجب أن تكون أحب إلى النفوس مما عداها،تقتضى أن تقولها،ما دمت قد وصلت إليها.

ولذلك كان من المنطقى أن يبدأ نظمى مقدمته للكتاب بقوله:«من يغلق عينيه دون النور يضير عينيه ولا يضير النور،ومن يغلق عقله وضميره دون الحق،يضير عقله وضميره ولا يضير الحق».

فالنور منفعة للرائى لا للمصباح،والحق منفعة وإحسان إلى المهتدى به لا إلى الهادى إليه،وما من آفة تهدر العقول البشرية كما يهدرها التعصب الذميم الذى يفرض على أذهان أصحابه وسرائرهم ما هو أسوأ من العمى لذى البصر،ومن الصمم لذى السمع؛ لأن الأعمى قد يبقى بعد فقد البصر إنسانا،والأصم قد يبقى

بعد فقد السمع إنسانا،أما من اختلت موازين عقله،أو موازين وجدانه،حتى ما يميز الخبيث من الطيب،فذلك ليس بإنسان،بالمعنى المقصود من كلمة إنسان.

بهدى من هذا المنهج وجد نظمى لوقا أنه من واجبه أن يكتب موقنا أن الإنصاف حلية يكرم بها المنصف نفسه قبل أن يكرم بها من ينصفهم،وليس الإنصاف ميزة لصاحبه إلا حينما يغالب الحوائل،كالعقائد الموروثة والتقاليد السائدة،أما حين يرافقها فما أهون الإنصاف،ولولا المشقة ساد الناس كلهم،كما يقول أبو الطيب المتنبى،ويوشك هو أن يقول:«لولا العصبية أنصف الناس كلهم».

ويجزم نظمى لوقا:«ما أحوجنا فى هذا العالم المضطرب الذى تنسمت فيه الناس مسكرات متقاتلة متلاحية من المذاهب والعقائد التى صبغت كل منحى من أنحاء الحياة،أن نسعى للقضاء على آفة العصبية،وننشد الإنصاف،إنصاف الخصم وكأنه صديق،فيشهد لنفسه بالفضل وحسن الرأى حين يؤدى الحق حقه مهما اشتجر الخلاف أو لج الخصام،وما أرى شريعة أدعى للإنصاف،ولا شريعة أنفى للإجحاف والعصبية من شريعة تقول: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ .

ويضيف:«أجل نعدل ولا نجور،فذلك حق أنفسنا علينا،وحق عقولنا علينا،وحق ضمائرنا علينا،قبل أن يكون حق هذا من الناس أو ذاك،وما أرى الشانى يضير خصمه حين يجور فى الحكم عليه،إلا كما يفقأ امرؤ عين نفسه كيلا يرى من يسؤوه مرآه،ولست أحب ذلك لأحد،بل إنى أرى مستقبل هذه البشرية منوطا باحترام العقل وتقصى العدل وإنصاف الخصم،حتى يرتد بنو حواء إخوة يختلفون فى مودة،ويتباعدون إلى تقارب،ويفيئون فى نهاية كل مطاف إلى نور الله الذى كرمهم بها وهو الحق والعدل».

ويتساءل نظمى لوقا عمن يستكثر الإنصاف على رسول أتى بغير دينه،هل

يستكثر على نفسه أن يظلمها إذ يحملها على الجمود والجور؟،ورغم أنه نفسه لا ينكر بواعث كثيرة فى صباه قربت بينه وبين الرسول صلى الله عليه وسلم،وليس فى نيته أن ينكر أو يتنكر لهذا الحب،بل إنه يشرف به ويحمد له بوادره وعقباه،فإنه يرى أن هذا الحب نفسه هو الذى يسر له شيئا من التفهم،وزين له من شخص الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم تلك الصفات المشرقة،وجعلته يعرض بوجدانه عن تلك النظرة الجائرة أو المتجنية التى نظر بها كثيرون من المستشرقين وغيرهم إلى الرسول العربى،فهو حين يحتكم إلى العقل،يرى الخير كل الخير فيما جنح إليه.

ويعترف نظمى لوقا:«بدافع من حب البشرية أقدمت على تسطير هذه الصفحات،وسيان بعد هذا أن يقول عنا القائلون:إنها شهادة حق أو رسالة حب أو تحية توقير وتبجيل،فما كان كآحاد الناس فى خلاله ومزاياه،وهو الذى اجتمعت له آلاء الرسل وهمة البطل،فكان حقا على المنصف أن يكرم فيه المثل،ويحيى فيه الرجل».

ثم يوقع باسمه ومكانه والتاريخ الذى كتب فيه مقدمته....الدكتور نظمى لوقا...١٠ شارع ابن سينا – مصر الجديدة ١٩٤٨ – ١٩٥٩.

(١)

لا يدخل نظمى لوقا إلى الحديث عن الرسالة والرسول،إلا بعد أن يفصل بشكل كامل علاقته بالإسلام،عبر فصل رائع وضع له عنوانا هو «صبى فى مسجد»...هو الفصل الذى سنعود إليه لاحقا عندما نرافقه وهو يتحدث عن الإسلام فى حياته.

تبدأ دراسة نظمى عن الرسالة والرسول بحديثه عن الآية الكبرى،ويسأل سؤالا يدخل من خلاله إلى ما يريد:«إن تكن هذه الأديان صحيحة فبأى حجة وبأى مقياس يمكن الطعن فى صدق رسالة محمد؟».

وتبدأ الإجابة:«ما من نبى حمل إلينا توكيلا موثقا بأنه ينطق بلسان الوحى،وإنما كانت آيته صدق ما أتانا به،وأما المعجزات فلا حجية لها إلا لمن شهد شهود العيان،وبيننا وبين ذلك أجيال، فتبقى بعد ذلك الآية الكبرى التى لا يثبت غيرها صدق،ولا يغنى عن غيابها ألف دليل مغاير،مهما بلغت درجته من الإعجاز،وهذه الآية الكبرى هى صدق الكلمة من حيث هى،فإن الحقيقة آية نفسها،تحمل برهانها فى مضمونها،فيطمئن إليها العقل،ويبدو ما يبانيها هزيلا واضح البطلان».

إن موقف الناس من الوحى واحدا،أيا كانت الرسالة الموحى بها والمخبر عنها،لم يطلب أحد من رسول قبل محمد برهانا عيانيا على وحيه كما يطالب به محمد،فمن اعترف بوحى السماء إلى رسول من البشر لزمته الحجة ألا ينكر نزول الوحى على محمد من حيث المبدأ،فوجه الامتناع هنا غير قائم بمبرر نزيه.

ولا يتبقى بعد سقوط الاعتراض على الوحى من حيث المبدأ،إلا النظر فى مضمون الوحى،فإن كان هذا المضمون حاويا آية صدقه فى ذاته،وليس فيه ما ينقض طمأنينة العقل أو يريبها فلا مفر من الإقرار بصدقه،ومن هنا وجب النظر النزيه فى رسالة محمد،والبحث فى مضونها،لنلتمس فيها آيات الصدق التى يصدق الناس بمثلها من سبقه من المرسلين،ولنرى هل فيها ما يدعو للريب،ويبرر دمغها بالزيف أو الدجل أو البطلان،ذلك هو الحد القوام الذى لا افتئات فيه على إنصاف،ولا ينبغى أن يحيد عنه من له فى النزاهة مطمع.

إن السلعة الأصيلة هى التى تؤدى للناس ما لا تؤديه سلعة أخرى،وإن كانت تشبهها فى بعض الوجوه،وليست تقليدًا أو تزييفا لسلعة سابقة عليها،بحيث يكون غيابها نقصا واضحا لا محل فيه للإنكار،لقد عرف الناس السفينة ذات المجداف وعرفوا السفينة ذات الشراع،ثم عرفوا السفينة التى تسير بالبخار،وكلها

سفن،ولكن الخلاف بينها فيما تؤديه للناس من خدمات.

كذلك العقائد والأديان،كلها عقائد غيبية،تحدد صلة الإنسان برب هذا الكون،ولكنها تتباين بوجه من الوجوه،وهذا تعليل توالى الديانات والرسالات السماوية مع أطوار البشر،ومستويات إدراكهم ووعيهم العمرانى،ولا لزم أن يكون لكل ديانة طابعها المميز الخاص بها،وأن يكون هذا الطابع المميز هو سبب وجودها،أو موضوع وجودها.

ويسأل نظمى:فهل للإسلام هذا السبب...وهذا الموضوع؟

ويجيب:«بعبارة أخرى أن الوظيفة تخلق العضو،والحاجة تخلق السلعة،فإن تحدد بعد الأديان السماوية السابقة للإسلام موضوع معين أو دور معين لعقيدة سماوية تحددها احتياجات التطور البشرى،ثبت أن ظهور ديانة جديدة لم يكن تعسفا أو فضولا أو اصطناعا لجأ إليه مغامر أفاق».

ثم يلزم النظر فى الإسلام،وهل جاء مؤدبا لتلك المهمة والرسالة؟

فإن صح ذلك كان عقيدة صحيحة جاءت فى ميقاتها الطبيعى لتقوم بدورها ـ ووظيفتها المهيأة لها بأطوار العمران البشرى،إن كل من آمن بالأديان ورسالتها وبالعقائد ووظائفها،لابد له من اتخاذ هذا المقياس الموضوعى الذى يعدل فى النظر إلى العقائد بعامة، والأمان محض وارث لعقيدته متعصب لها عصبية عمياء.

وما على المنكر إلا أن يبين لنا مقياسا آخر نعرف به وظائف العقائد ويفسر لنا تواترها وتعاقبها على مرور الأجيال قبل دعوة محمد،إن قال بالوحى هناك،فما هو دليلك على صدق وحى من قبل محمد،بحيث يفتقر وحى محمد إلى ذلك الدليل؟

لم ير أحد ملك الوحى هابطا على من قبل محمد،حتى نطالب بظهور جبريل وهو

يهبط بالوحى عليه،وإن قال :إن الديانات تعاقبت بغير علة لهذا التعاقب من مضمون الرسالة ومؤداها،فقد نفى الحكمة من التعاقب،بل نفى الحكمة من الدين عامة،فإن الشرائع التى تتكرر بغير تعديل قول معاد،وفى غير حاجة إلى إعادة.

ويأخذ نظمى دليلا على كلامه من أن البشر يتطورون ويتقدمون فى وعيهم العمرانى،ولذلك كانت الإعادة المكررة تقصيرا،فلا يبقى إلا أن الشرائع السماوية تساير البشر فى تطورهم،كما أن غذاء الإنسان يساير المرء فى تدرجه من الرضاع إلى الطفولة واليفاع والكهولة،وهذا يردنا إلى تمايز الرسالات الدينية،وتفرد كل منها بخصوصية هى موضوع وجودها أو هى وظيفتها،ولا يبقى بعد ذلك جاحد لهذا الموقف إلا من يقول:هذا رأيى وكفى، ومثله لا يعول له على رأى،لأنه مكابر بغير عقل،فلا يستحق أن يتجشم خطابه أو إقناعه ذو عقل.

(٢)

يعقد نظمى لوقا بعد ذلك مقارنة واضحة بين الديانات الثلاث.

ويبدأ باليهودية الذى هو دين شعب كما يصفها،يقول:«دين بنى إسرائيل وإن كان دين توحيد وتنزيه،قد اختص به شعب معين دون سائر الشعوب،فهو إذن ليس الدين الذى يهتدى به الناس كافة،ويجدون فيه إشباع حاجتهم الفطرية إلى العقيدة».

والدين الذى يختص به شعب بعينه لابد وأن تتمثله سرسرة ذلك الشعب، فتكون سيرتهم فى العمل به كسيرتهم أصلا،بحسب عقليتهم وفطرتهم وطبعهم، وكان بنو إسرائيل من قبل قوم أوثان وتعدد وتجسيم، وكانوا أشتاتا فى الأرض ينزلون هنا وينزلون هناك على شعوب غريبة،فينفسون على أهل البلاد الأصلاء أن لهم وطنا وبأسا وسيادة وغلبة،والناس منذ قديم يلتمسون فى أربابهم النقمة أو قوة السلطان والقدرة على المعونة،فالتمسوا فى الإله الواحد أن يختص بهم،لا يعبده أحد

سواهم،وأن يغلبهم من عداهم من الخلق،وأن يمكن لهم فى أرض العباد ورقابهم.

والدين من حيث هو دين شعب حر أن يعنى بسن القوانين فى المعاملات وأن ينهى عن التجسيم،فتعوضوا عن أهدافهم التى صدهم عنها أهداف أخرى،فأقاموا الهياكل كما تقيم الأمم الوثنية الهياكل لأربابها،وليقدموا القرابين والذبائح كما كان يقدمها عباد الأوثان،مع فارق واحد هو أن من يتوجهون إليه بقرابينهم وشعائرهم فى تلك الهياكل والمذابح هو الإله الواحد الخالق القادر...إله إسرائيل.

ثم أسف الشعب المسف بالتوحيد نفسه،حتى جعلوا الأوثان فى بيوتهم يسمونها «الطرافين»، وحتى أقيمت لصنم البعل وغيره مذابح فى قلب هيكل سليمان، وشعب هذا شأنه لا يصد عن الإسفاف والانتكاس إلا بالتخويف وهزيم النذير بين يدى عذاب شديد،فامتلأت أقوال أنبيائهم المتعاقبين بهذا التحذير والتهديد حتى صارت الصفة الغالبة للإله الواحد عند بنى إسرائيل أنه رب الجنود،وأنه القوى المنتقم الجبار الغضوب.

ذلك كله يصور سريرة ذلك الشعب،ويطلعنا على ما تصير إليه عقيدة التوحيد والتنزيه إذا صارت إلى قوم تملأ قلوبهم المنافع والحرص على الدنيا،فهم لا يبغون رضوان الله خالصا لوجهه،ولا يعبدونه خالصا لوجهه،ولا يجلونه عن هذه المواسم المادية فى تقديم القرابين والذبائح،إذ لا وجود فى إخلادهم إلا للمادة وما يتفرع عليها،أما الروح والضمير،أما النظرة الشاملة لبنى الإنسان كافة،أما الإخاء الذى يربط الأحياء برباط واحد،هو رباط الوجود الحى،فذلك وعى لم يكن لديهم إلا مطموسا،فلم يكن همهم من الدين إلا تشريعا فى المعاملات يستحلون به أموال سواهم من الأمم وطقوسا فى العبادة هى أيضا ضرب من تشريع المعاملات وصيغ السندات والديون والمطالبات،فهى عبادة فى مقابل مؤازرة على عدو،أو زيادة فى

إدرار الرزق.

أما المسيحية فهى عند نظمى لوقا دين قلب.فالعقيدة حاجة روحية أصلا،فلن تطول القناعة بالقعود دون التحليق،ولن يطول الطور الذى يكتفى فيه بعقيدة يختص بها فريق من الناس دون فريق،فليس للروح والضمير وطن ولا جنس، والعقيدة التى يقنع بها الضمير ويطمئن إليها لابد أن تفتح الباب لجميع الشعوب،وأن تفتح على الخصوص أمام الناس آفاقا عالمية،تتجه خلالها الروح إلى الله،لا لأنه الوهوب الوهاب ذو الأيد والمنة فحسب،بل لأنه مصدر الحياة والوجود والمثل الأسمى للاعتقاد، تتجه إليه النفس مشوقة غير مسوقة،ولا تستغنى بالمراسيم والمجسمات المحسوسة عن الغبطة بتأمل ذلك الكمال الأبدى المطلق الذى لا يتجسم ولا يدرك بالحس، ففى الاتجاه إليه سبحانه سعادتها الكبرى.

وبهذا كان التطور الطبيعى للإنسانية أن تتطلب الهداية فى رسالة المسيحية التى لا تدعو إلى التوحيد والتنزيه فحسب،بل تجعل الله المعشوق الأسمى الذى يتجه إليه وجدان كل إنسان،فيتلاشى من قلبه حب كل معشوق سواه،ولا يبقى للحس وجاهه سلطان على قلب ذلك المحب،ولا الطقوس قيمة؛ لأنه إذا حضر المحبوب لم يكن لتملى رسمه على الورق أو مناجاة طيفه معنى.

ويعنى نظمى لوقا بالمسيحية هنا ما جاء به المسيح من نصوص كلامه لا ما ألحق بكلامه وسيرته من التأويل،فالمسيحية بهذا الاعتبار هى دين القلب الإنسانى من حيث هو كذلك،بصرف النظر عن الفوارق الإقليمية والشعوبية،ولهذا نجد دعوة المسيح خالية من المراسم والطقوس،كمل خلت من تشريع المعاملات،لأن موضوع المعاملات والحياة الدنيا برمتها لم تدخل له فى حساب بشقيها من مال وقصاص، ولكن البشرية لم تنضج لهذا الدور نضوجا واحدا متساويًا،لأن عقيدة القلب

الخالص من كل علائق المادة هى بطبعها عقيدة الأفراد الأفذاذ،أما السواد من الناس،فللحس على قلوبهم أبدا سلطان غير مجحود ولا مردود.

لهذا بقيت المسيحية فى حقيقتها دين قلة هم الأفراد ميسرين لها،وكانت نتيجتها المنطقية تلك الرهبانية المنعزلة عن الدنيا ومعاناتها،أما السواد من الناس فراحوا يلبسون أوثانهم الحسية وعقائدهم المادية طيالس العبادة الجديدة،فتمثلوها كما تصورها لهم عقولهم،واطمأنوا إلى هذا التصوير،ولهذا أيضا لم يستطع السواد الارتفاع إلى المستوى الروحى العالى الذى هو مضمون دعوة السيد المسيح،ولم يسلموا – لتعلق قلوبهم بالدنيا وغشيان المادة وسلطانها على تفكيرهم – من ظهور عقابيل التجسيم والتنطس فى المواسم تتخذ عنواين الدين الجديد وتتزيا بزيه؛ لأنها نظم تقابل حالات النفس التى لم تنضج بعد لدعوى الروح الخالصة من قيد الجسد وشهواته.

وعندما يصل نظمى لوقا إلى الإسلام،يطلق عليه دين البشر،يقول:«لم يزل الناس بحاجة إذن إلى عقيدة جديدة،يجتمع إليها العقل والقلب جميعا،وتصحح ما تدور فيه من الأخطاء فى تفهم ما سبق من عقائد ورسالات،إن الناس بحاجة بعد إلى دين يؤكد وجود الله،وأنه خالق الخلق،وأنه الكامل المنفرد بالكمال،بيده الأمر،وهو على كل شئ قدير،ويؤكد وحدانية الله توكيدا يقضى على عقابيل التعدد فى تصور الإله،ويلزم كذلك أن يؤكد هذا الدين التنزيه لله،حتى لا ينزلق الناس إلى التجسيم الذى طالما وقعوا فيه بعد كل دعوة للتوحيد بسبب غلبة الحس عليهم».

هذا من جهة مضمون العقيدة الجديدة،أما من جهة موقعها من الناس فينبغى أن يتجه الدين الجديد إلى الناس كافة،لا فرق فيهم بين شعب وشعب،ولا بين جيل وجيل،ولا بين طبقة وطبقة،وينبغى كذلك أن يكون فى هذا الدين الجديد مقنع

للممتاز الميسر لأشواق الروح،وأن يكون فيه كذلك لصاحب الدنيا ملحظ يلفته إلى آفاق الروح،ويشعره أن ثمة ارتباطا بينها وبين السعى فى سبيل الدنيا،فيجد لهذا السعى مددا من عليين لا يحقر فى عينيه مطالب الحياة،ويجعل فى قلبه مؤئلا للشعور بالرضا والكرامة؛ لأنه استطاع أن يكون صالحا وهو من أهل هذا العالم المعنيين بأموره ومهامه ومطالبه.

لن يكون الحياة الدنيا فى هذا الدين الجديد رجسا،بل هى من ملك الله وطيبات نعمائه،فالله صاحب الدنيا كما هو صاحب الآخرة،وهو سبحانه خالق الحس بما يفرضه من دوافع الحياة ومطالبها،وهو فاطر طلبها فى النفس،وإنما هى الحدود الشرعية يفرضها الله فى دينه، فإذا السعى فى سبيل الدنيا على سنن تلك الحدود،وقد أمسى تحصيلا للمثوبة فى الآخرة بالطاعة والإحسان.

كما أن للمفكر والمؤمن معا فى الدين الجديد مكان،أولهما ينبغى أن ينتهى إلى ما ينتهى إليه الآخر؛ لأن الحق واحد فى جميع السرائر والضمائر متى أحسنت التلمس والاهتداء، وهكذا لابد أن يكون الدين الجديد عقيدة تصلح للكافة،العامة منهم والخاصة،يشعر كل منهم أن له عقيدة يطمئن إليها،وأن هذه العقيدة رباطه بالدنيا وبالآخرة،بالله وبالإنسان،فالناس أمة واحدة فى هذا الدين الجديد.....هذا الدين المرموق هو دين البشر،وكان الإسلام هو الذى انبرى للنهوض برسالة هذا الدين.

(٣)

حمل نظمى لوقا بعد ذلك على كاهله مسئولية الإجابة عن سؤال واحد هو:كيف نهض الإسلام بهذه الرسالة التى لبت حاجة البشر الطبيعية فى ذلك الطور المعين من أطوار الاعتقاد؟

والبداية من ماهية الله،يقول نظمى:«لا يدع القرآن شائبة من ريب فى مسألة

وحدانية الله،فجاء فى سورة الإخلاص : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ ، وفى تنزيهه عن الشرك والتعدد: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ ،وفى ذلك نقض لعقائد الشرك،وتصحيح لعقائد أهل الكتاب أيضا،فقد صار أتباع المسيح إلى القول بألوهيته،وأنه ابن الله،وأن الإله الواحد جوهر واحد،له ثلاثة أقانيم،هى الله الأب،والله الإبن – وهو المسيح – والروح القدس،وشبهوا ذلك السر الإيمانى المسيحى بالشمس،وكيف أنها حقيقة واحدة،تقع على الحواس قرصا ونورا وحرارة».

كل هذا رغم أنه لم يرد على لسان المسيح فى أقواله الواردة فى بشارات حواريه (الأناجيل) إشارة إلى شئ من ذلك،بل كان يدعو نفسه على الدوام ب «ابن الإنسان»،وأما البنوة لله عز وجل فما ورد لها ذكر إلا على سبيل المجاز المطلق،وبمعنى يشمل البشر كافة،حين أوصى أن تكون صلاة الناس إلى الله بادئة بقولهم:«يا أبانا الذى فى السماء»، وحين طالب أتباعه وجميع الناس أن يسلكوا طريق البر، كى يكونوا جديرين بنسبتهم إلى الله،فالمسيح رفع خصوصية البر عن اليهود الذين قالوا: «إن أبناء إبراهيم وحدهم هم الناجون الظافرون برضوان الله؛ لأن الناس كافة أبناء الله ما سلكوا طريق البر،وأحبوا الله وأحبوا إخوانهم فى الله حتى أعداءهم».

بل إن المسيح وعظ الناس فضرب لهم المثل فى رعاية الله وعنايته،بما يتيحه الرزق لطيور السماء ووحش الفلاة،وما يتيحه من الزينة لزنابق الحقل،فلا ينبغى أن يكون حرصهم كله على مال الدنيا وقوتها وجاهها وزخرفها،وما أقرب هذا أن يجعل رعاية الأبوة مطلقة شاملة لجميع الكائنات،وما أبعد هذا أن يكون ذلك السر أو اللغز المعقد الذى اختلفت فيه أقوال المفسرين من أساطين الكهان وعلماء اللاهوت.

وقد أدى هذا اللبس إلى فتنة،بل فتن بين صفوف أتباع المسيح والمنتسبين إليه،وجمعت المجامع ووقعت المذابح وسار الإيمان سبيلا إلى اللدد والفرقة،لا إلى الألفة واجتماع العقول والقلوب على عقيدة يطمئن الجميع إليها،وناهيك بعقيدة لبابها المحبة حتى للأعداء،تكون مثار ذلك كله،وناهيك بعقول السواد ممن غبرت لهم الوثنية جذور عقلية وحسية منذ ألوف السنين،كيف لا تنزلق إلى الشرك من باب هذا السر الذى يحمل من الواحد الفرد ثلاثة أقانيم.

كان لابد من رد الناس إلى بساطة الاعتقاد،ولابد من نفى اللبس وشوائب الريب عن جوهر هذه العقيدة،وهو التوحيد مطلق التوحيد،فتعين أن يأتى الدين الجديد بحسم هذا الاختلاف الوبيل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

لم يلد ولم يولد،فأقرب إلى العقل لأن من يلد أحرى بأن يولد،وما كان سبحانه فردا فى جنس،ولا واحدا فى سلالة من نوعه،حاشا،بل جل عن النظراء والأكفاء،فمن ذا الكفء لله.

وكان لابد للدين الجديد أن يثبت قلوب الناس بالطمأنينة إلى عناية الله بالخلق، وهو المدبر القادر،لم يخلق الكون ثم نفض يده: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ ،ولا يدع القرآن فى ذلك شكا،فهو يقرر ويكرر فى أكثر من موضع تلك الحقيقة الجوهرية، التى تقر سلطان الله على الخلق،وتدعوهم إلى الطمأنينة إلى عنايته، والحرص على رضوانه،فجاء فى سورة الحديد:﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ .

وهكذا بدت العقيدة الإلهية فى الإسلام ناصعة الصفاء فى تجردها من الشرك وشبهاته،ومن النقص وشوائبه على نحو حاسم،كانت البشرية قد باتت فى حاجة

ماسة إليه بعد الذى انتاب المؤمنين بالأديان من اختلاف وبلبلة،وأما والمسألة إيمان،فمن آمن بعقيدة تنزه الله عن كل مشابهة بالخلق،وعن كل تعدد تجسم أو استدق،يكون أقرب إلى طمأنينة العقل والنفس ممن يروضها على الإيمان بإله واحد،ولكنه يحتال على تصور وحدانيته رغم أقانيمه المتعددة،ويحار فى وجه حاجته سبحانه إلى تعدد الأقانيم،وقد كانت لعباده غنية عن تلك الحيرة بتمام التوحيد، فيغلق الباب دون كل تساؤل وكل إبهام.

أما صفاته سبحانه فلا يدركها الحصر،وإنما يتجلى للناس منها ما يعنيهم وما يكون على قدر إدراكهم،وأول ما يواجه الناس أمر المحيا والممات،فالله هو:الحى الذى لا يموت،وهو الذى يحيى ويميت،كل شئ هالك إلا وجهه،وتتواكب آلاء الله على عباده، فهو الرازق الوهاب خالق ما فى الأرحام،انعليم الحكيم البصير المنتقم ذو الجلال.

وقد كانت لبنى إسرائيل تصورات مفزعة عن آلاء الله،تكاد تنفى الطمأنينة وتبعث الهول،وما دين بغير طمأنينة يستقيم بها أمر الناس فى حقهم من الدنيا والآخرة؟

إن كل سورة يفتتحها القرآن باسم الله «الرحمن الرحيم»،لا يكتفى من هاتين الصفتين بوادة دون الأخرى،ويقول (فى سورة فصلت):﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، ولا يجرى ذكر العذاب إلا ويطئمن الناس إلى العدل وإلى الإعذار مع الإنذار،فهو إذ يقول فى سورة البروج:﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾،يردفها بقوله:﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾.

ولئن كان أقوام يؤمنون بأن الله ينتقم من الأحفاد لآثام أجدادهم الغابرين،وأن حصر الآباء يضرس به البنون، فالقرآن قاطع فى نفى هذا الجور المستعصى على الفهم،فيقول فى سورة فاطر:﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾،ويقول فى سورة البقرة: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، وهو توضيح أو تصحيح كان لا محيص عنه،وإلا وجد العقل البشرى فى سنن الله ما

يزعجه ويصده عن الإيمان والتسليم.

وكأنما بقيت بعد تلك الصفات وقفة قد يقفها عقل البشر الذين درجوا ألوف السنين على التجسيم،وهو تصوير كل شئ فى صورة الجسم الذى له موضع محدد وأين معين،ويأتى القرآن بالجواب حاسما قاطعا لكل شك:﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾، ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾، ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾.

ويحار البشر فيقضى على تلك الحيرة بذلك القول الفصل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾، عقيدة واحدة بسيطة يقطع الإيمان بها الطريق على كل حيرة وخوف،ويبعث الطمأنينة فى كل نفس،وباب هذه العقيدة مفتوح لكل إنسان،لايصد عنها أحد بسبب جنسه أو لونه: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾.

وهكذا يجد كل إنسان له مكانا فى ظل هذه العقيدة الإلهية على أساس من المساواة العادلة،التى لا تفاضل معها إلا بالتقوى،تقوى الله رب العالمين.

(٤)

ومن الله إلى الإنسان الذى يرى نظمى لوقا أنه وقف بعد اليهودية والمسيحية موقفا لا يحسد عليه كثيرا،بسبب ما التصق به من وزر أبيه الأول آدم،ذلك الوزر الذى اعتبر خطئية أولى،وخطئية باقية موروثة،لابد لها من كفارة وفداء حتى لا يذهب بجريرتها أبناء الجنس البشرى كافة.

يقول نظمي:«وإن أنس لا أنسى ما ركبنى صغيرا من الفزع والهول من جراء تلك الخطئية الأولى،وما سيقت فيه من سياق مروع،يقترن بوصف جهنم ذلك الوصف المثير لمخيلة الأطفال،وكيف تتجدد فيها الجلود كلما أكلتها النيران،جزاء وفاقا على خطئية آدم بإيعاز من حواء،وأنه لولا النجاة على يد المسيح الذى فدى البشر بدمه الطهور لكان مصير البشرية كلها الهلاك المبين،وإن أنس لا أنسى القلق الذى ساورنى وشغل خاطرى عن ملايين البشر قبل المسيح،أين هم ..وما ذنبهم حتى يهلكوا بغير فرصة للنجاة؟».

ولذلك كان لابد من عقيدة ترفع عن كهل البشرية هذه اللعنة،وتطمئنهم إلى العدالة التى لا تأخذ البرئ بالمجرم، أو تزر الولد لوزر الوالد،وتجعل للبشرية كرامة مضمونة،ويحسم القرآن، هذا الأمر حين يتعرض لقصة آدم وما يروى فيها من أكل الثمرة المحرمة فيقول فى سورة طه: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ ،ويقول فى سورة البقرة : ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ .

وآدم أبو البشرية كرمه الله فخلقه على صورته،وفضله على الملائكة،وقد جاء فى سورة البقرة:﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ ﴾ ،ذلك أن الإنسان قادر على الخير والشر،وليس كل الملائكة التى لا قدرة لها إلا على الخير،فله عليها فضل الإرادة لما يأتيه من الصالحات،أما بنو آدم فتقول سورة الإسراء: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ ، ويخاطب الناس فى سورة الحج: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ،وفى سورة لقمان: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾.

إن المسئولية هى أساس الكرامة الإنسانية،وأساس كل حرية،وكل أخلاق

ممكنة،وهذا ما قطع به الإسلام،ووضع به الحجر الأساسى لكرامة بنى آدم،فيقول فى سورة النجم: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ ،ويقول فى أكثر من سورة على سبيل التأكيد: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ ،وهو القائل فى سورة التين: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ ،هذه المسئولية هى التى يسميها القرآن الأمانة،تلك الأمانة التى جاءت فى سورة الأحزاب: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ ،ثم نجد فى سورة الإسراء: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ .

والحق أنه لا يمكن أن يقدر قيمة عقيدة خالية من أعباء الخطيئة الأولى الموروثة إلا من نشأ فى ظل تلك الفكرة القاتمة،التى تصبغ بصبغة الخجل والتأثم كل أفعال المرء،فيمضى فى حياته مضى المريب المتردد،ولا يقبل عليها إقبال الواثق بسبب ما أنقض ظهره من الوزر الموروث.

إن تلك الفكرة القاسية تسمم ينابيع الحياة كلها،ورفعها عن كاهل الإنسان منة عظمى،بمثابة نفخ نسمة حياة جديدة فيه،بل هو ولادة جديدة حقا،ورد اعتبار لا شك فيه،إنه تمزيق صحيف السوابق ووضع زمام كل إنسان بيد نفسه،والناس فى كرامة البشرية أمة واحدة،بغير تفريق،فقد جاء فى سورة الأنبياء: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ ،وجاء فى سورة الحجرات: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ .

أجل لا عصبية ولا شعوبية ولا فروق من حيث اللون أو اللغة،وهذه سورة الروم: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ ، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ ،وهكذا صار الناس سواسية كأسنان المشط،أكرمهم عند الله أتقاهم،ثم : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ ، ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.. ألا من له أذنان للسمع فليسمع.

إن من كرامة الإنسان على نفسه أن يتبع الحق،ويجهر به ويحتمل فى سبيل ذلك من العذاب ما يصيبه بنفس راضية،وعلى المؤمنين أن يتواصوا بالصبر كلما تواصوا بالحق،أو كما جاء فى سورة العصر: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾.

والغلبة ليست إلا للحق فى نهاية المطف على كل حال: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾.. ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ ،أجل وينبغى أن يقر الإنسان الكريم بالحق ولو على نفسه وآله الأقربين،كما ورد فى سورة النساء:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ ،إن الحق مقدس ولو كان فيه نصرة عدو،أو مغنم له،فذلك هو لباب التقوى،فقد جاء فى سورة المائدة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

ثم يأتى فى ختامها: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ ،وتشيد سورة الفرقان بالصادقين: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴾ ،وإن الإنسان الكريم العزيز بإيمانه الصبور على المكاره،إن أوذى فى سبيل الحق: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ .. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ..﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

هى الشجاعة فى الحق والشهادة لله،والصبر على الإيذاء فى سبيل الحق،إنها لصفات الإنسان الكريم على نفسه حقا،ولكنها لا تتم روعة إلا بالخشوع للرحمن: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ ،﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾، ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾.. ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾.

يخلص نظمى لوقا من ذلك كله إلى أنه يشهد كم تميعت نفسه وغثيت كلما رأى عتلا من المستكبرين الذين غرهم من الدنيا ظل من السلطان،وما دروا لغفلتهم أن السلطة فى ذاتها ليست شيئا،وأن الولاية على الناس جذوة من النار،أما الشئ حقا،فهو رعاية الله فى حقوق الناس،واستخدام السلطان للخير والعدل فى غير الحق،وحماسة لنصرته وابتغاء لوجه الله لا يعرفه إلا الخاشعون،ويكاد يقذف فى وجه القوم من هؤلاء بما جاء فى سورة الإسراء:﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ .

ولا تتم صورة الإنسان الكريم الغيور على الحق،الصادق فى القول،الصابر فى الهول،الخاشع للرحمن،إلا بأن يكون صادق الوعد موفيا بالعهد والعقد: ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ ...»يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعهود»...﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾..وما من خلة أزرى بالإنسان الكريم من النفاق،وقد أنحى عليه القرآن، إنحاء عنيفا: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى

ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾...﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾.. ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ .

والإنسان الكريم حقا لا ينافق،ولا يخشى فى الحق شيئا،ينصر الله والله ناصره،ذلك جوهر إيمانه،وإنه بذلك لعزيز المكان فى الدنيا والآخرة،لا يسعى فى دنياه سعى الغريب الذليل: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ ، وهكذا يكون الإنسان متكامل الجوانب،لا يشكو فصام الروح والجسد، ذلك الفصام الذى عانى منه الكثيرون ولا يعرف الفصم إلا من يكابده،وبهذا يكون الإنسان سيد الأرض حقا،لا ينظر إلى طيباتها نظرة الحسير،ولا يمشى فى جنباتها مشية الأسير،ولا يثقل كاهله الخزى من نوازعه،فى يده زمام نفسه،وقد أحل له ما لم يرد فيه تحريم،تقر به عينه فى غير حرج ولا غضاضة.

(٥)

وفى شأن النبوة يقول نظمى لوقا:«لا تأليه ولا شبهة تأليه فى معنى النبوة الإسلامية،وهى مسألة كانت تحتاج إلى توضيح وحسم،وقد درجت شعوب الأرض على تأليه الملوك والأبطال والأجداد،فكان الرسل أيضا معرضين لمثل ذلك الربط بينهم وبين الألوهية بسبب من الأسباب،أو بنسب من الأنساب،فما أقرب الناس لو تركوا أنفسهم أن يعتقدوا فى الرسول أو النبى أنه ليس بشرا كسائر البشر،وأن له صفة من صفات الألوهية على نحومن الأنحاء».

ولذا نجد توكيد هذه التنبيه متواترا مكررا فى آيات القرأن،نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر،ما جاء فى سورة الكهف:﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ ...وفى تخير كلمة «مثلكم» معنى مقصود به التسوية المطلقة،والحيلولة دون الارتفاع بفكرة

النبوة أو الرسالة فوق مستوى البشرية بحال من الأحوال،بل نجد ما هو أصرح من هذا المعنى فيما جاء بسورة الشورى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ ...وظاهر هذه الآية تعمد تنبيه الرسول نفسه إلى حقيقة مهمته،وحدود رسالته التى كلف بها،وليس له أن يعدوها،كما أنه ليس للناس أن يرفعوه فوقها،بل كأنما احتاج هذه التنبيه إلى مزيد من الصراحة،فجاء فى سورة ق:﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾ ، ومن هذا القبيل أو أبين منه وأصرح ما ورد فى سورة الغاشية:﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ .

هو إذن رسول بشر،ما عليه إلا البلاغ بما يوحى إليه من ربه ولا زيادة،وتوكيد القيمة البشرية بحدودها للرسول ليس بلفظ الآيات فحسب،بل هو معنى تنطق به كيفية الرسالة كلها،وتاريخ الرسول كله،إن رسول الإسلام هو أول رسول بعث إلى الناس وانبرى لدعوتهم إلى دينه من غير مدد من المعجزات الخاطفة للأبصار الخالبة للألباب،فقد أريد للناس أن يشعروا أن رسولهم مثلهم حقا وصدقا،لا يملك من الخوارق أكثر مما يملكون،وليس له من سلطان عليهم،وإنما الأمر إليهم،كى يكون اهتداؤهم نابعا من قدراتهم البشرية،وعن اقتناعهم الذاتى،بغير تأثير غريب عن معدن العقل والضمير فيكون اهتداؤهم إيمانا ليست فيه شبهة استهواء أو توريط.

وما توانى العرب عن مطالبته بإخراج ما ظنوه فى جعبة كل صاحب نبوة،وما أرداوا بذلك إلا الملهاة، ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ ﴾ . ..﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾... ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

إنه يقولها:ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى

السوء،حقا،وما أكثر ما أوذى وما أشد ما أساءوا إليه به،وهو لا يملك لذلك دفعا،إلا الصبر على البلاء،بل وتخطف الموت فلذات أكباده،ليكون ذلك إيذانا بأن البشر الرسول ليس له امتياز على سائر بنى آدم،فتسقط دعوى الناس فى التقصير عن الاهتداء به،فلو كان يجرى عليه غير الذى يجرى على البشر،لكانت لبعضهم الحجة بأن استطاعتهم دون استطاعة هذا الرسول،فأين هم منه؟وكيف يكلفون بما لا طاقة لهم به؟.

بل هو مثلكم لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا،ويمسه السوء والثكل مرة بعد مرة، ففيه قدرة سوية وأسوة عادلة لكل من نشد الاهتداء والإقتداء،ويقول نظمى:«وفى يقينى أن تأييد دعوة حق بخارقة غير طبيعية مسألة لا تستساغ إلا فى حالات انحطاط العقل البشرى،فهذا أشبه بالاحتيال على الطفل ليقبل على الطعام الذى يقيم أوده،وهو حرى أن يطلبه ويلح فى طلبه لو أوتى الرشد،وكذلك العقل السوى يجد امتهانا له أن يحتال عليه صاحب دعوى بخارقة لا علاقة لها بصدق تلك الدعوى،فإن كل دعوى صادقة أو كاذبة لذاتها لا أمر خارج عنها،فالحقيقة آية نفسها ولا مراء فى ذلك،لهذا كان العقل البشرى فى طور رشده أن تأتيه الدعوة إلى الهداية بأسلوب عقلى صرف يحترم فطرته وبداهته».

وتلك قرينة أخرى على أن دعوة الإسلام جاءت موافقة للطور الطبيعى للبشرية ونصوحا ورشدا،وكان القرآن يؤكد على الدوام أن الرسول ليس ساحرا ولا كاهنا ولا مجنونا ممن يهم لوثات الصرع،وينبه إلى أن المعجزة الخارقة لا تفيد فى إقناع مكابر.

ومن ينعم النظر فى هذه الآيات من سورة الإسراء يجد فيها حكمة الإصرار على بشرية الرسول، وأن آيته الوحيدة هى صدق رسالته،وذلك حسبها من سند،

وحسب الناس لو كانوا مهتدين غير مكابرين،فما شاء الرحمن أن يكون الرسول ملكا من الملائكة،حتى تكون بشرية هذا الرسول حجة على الناس وقدوة:﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ .

ويستعين نظمى بما أورده الإمام محمد عبده فى مفتتح كتابه الإسلام والنصرانية،دون أن يخفى إعجابه به،فالإسلام – كما يرى محمد عبده – فى هذه الدعوة لا يعتمد على شئ سوى الدليل العقلى والفكر الإنسانى الذى يجرى على نظامه النظرى،فلا يدهشك بخارق العادة،ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة،ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية،ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية،وقد اتفق المسلمون إلا قليلا ممن لا يعتد برأيهم فيه،على أن الاعتقاد بالله مقدم على الاعتقاد بالنبوات،وأنه لا يمكن الإيمان بالرسل إلا بعد الإيمان بالله،فلا يصح أن يؤخذ الإيمان بالله من كلام الرسل ولا من الكتب المنزلة،فإنه لا يعقل أن تؤمن بكتاب أنزله الله إلا إذا صدقت قبل ذلك بوجود الله وبأنه يجوز أن ينزل كتابا ويرسل رسولا.

ويلتقط نظمى لوقا الخيط مرة ثانية يقول:«الحقيقة باقية والبشر زائلون،الرسالة إذن هى الباقية،وما هى بمتوقفة فى شئ على بقاء هذا الرسول: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ ،إنها الحقيقة ولكن كان

لابد من تقريرها لتوكيد بشرية هذا الرسول،وليس أدل على لزوم هذا الاحتياط من افتتان الناس برسولهم،وجنوحهم إلى الخروج به عن مستوى البشر الفانين،من أن إمام مثل عمر بن الخطاب على رجاحة عقله وقوة إيمانه،وهو من هو من الإسلام ورسوله،أبى أن يصدق أن الرسول نزل به طائف الموت،ولولا أن أبا بكر تلا عليه وعلى الناس هذه الآية،لقطع عمر أيدى رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله قد مات، ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ .

كان من الجائز أيضا أن يقتل بيد عدو من أعداء دعوته،وما أكثرهم،وما كان ذلك لينفى شيئا أو يثبته،فإن الحق حق لذاته ودعوة الإسلام صادقة لذاتها، عاش الرسول أو مات أو قتل.

هذا إذن هو مكان النبوة فى ذلك الطور الأخير من أطوار العقيدة الإلهية،فليس أنبياء الله كهانا ولا ملائكة ولا سحرة ولا منجمين،وإنما هم بشر يأتيهم الوحى من الروح الأمين،وليس عليهم إلا البلاغ المبين.

ثم يأتى السؤال الأكثر أهمية فى مسيرة هذه الدراسة رغم أنها لم تنته بعد،يسأل نظمى:ولكن هل تتكرر تلك النبوة على ذلك الأسلوب؟...والإجابة:لا حاجة للبشرية بذلك التكرار،فإن طور الأسلوب العقلي المجرد هو آخر أطوار البشرية،ومن تفتح عقله وبلغ رشده فطائره فى عنقه،وعليه بعد ذلك أن يعمل فكره وقد تسلم قياد نفسه.

إن للرسالة خصوصية هى إتمام ما سب،ومتابعة البشر فى أطوار نضجهم بما يناسبهم من الهداية والصلاح،فما هى الخصوصية التى يمكن أن تكون موضوع رسالة جديدة بعد رسالة الإسلام،لقد تمت فكرة التوحيد وتم خطاب العقل،وتم البلاغ إلى الناس كافة،أحمرهم وأسودهم وتمت كرامة الإنسان وصلته بربه

وبدنياه،وتركت لهم مصالحهم المرسلة يعالجونها على ذلك قول معاد،ليس فيه جديد يســـــتفاد: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ ..وبسبب من طبيعة الرسالة ومن الحاجة الطبيعية للناس إليها،كان من الطبيعى أن يكون هذا الرسول خاتم الرسل لأن رسالته كانت خاتمة الرسالات.

(٦)

برى نظمى لوقا أن المرأة فى الإسلام إنسان له كل حقوق الإنسان وكل تكاليف العقلية والروحية،فهى فى ذلك صنو الرجل تقع عليه أعباء الأمانة التى تقع عليه،أمانة العقيدة وتزكية النفس،وجاء ذلك فى سورة الأحزاب:﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

وقبل أن يأتى الإسلام كانت قبائل العرب فى الجاهلية تئد البنات،كراهة لهن وازدراء لشأنهن،ومن لم يئدهن كان يضيق بهن ضيقا شديدا: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ ...وفى هذه السورة عينها إشارة إلى المساواة عند الله بين الذكر والأنثى بغير تفريق فى التكليف أو الجزاء: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

وفى سورة النساء إشارة صريحة إلى مساواة المرأة والرجل فى ثمرات الأعمال والجهود:﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ﴾ ،وفى بعض الأمم القديمة وفى بعض الأمم الحديثة كانت المرأة تحرم غالبا من الميراث،فأبى الإسلام

هـذا الغبن الفاحش،ونص على ذلك فى سورة النساء:﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ ، وهذا النصيب المفروض ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ ،باعتبار أن نفقات المرأة تقع على عائلها من الذكور بالغا ما بلغ ثراؤها،أما الذكر فهو عائل أهل بيته من أولاد ونساء،فأعباؤه المالية أبهظ من المرأة بكثير،وهذه القسمة إذن أقرب إلى مجاملة المرأة فى شئون الأموال الموروثة.

ولا يخوض إنسان فى موضوع المرأة فى الإسلام من غير أن تخطر بباله قضية تحرير المرأة فى هذا العصر،ومساواتها بالرجال ويخطر على البال حتما قول القرآن فى سورة النساء:﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ ، وما جاء فى سورة البقر:﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ ، فإنها تبدو لأول وهلة هابطة بالمرأة إلى درجة الرجل،وفى هذا ما فيه من بواعث التساؤل،فى زمن استفحلت فيه قضية المساواة بين الجنسين وتقررت فى جميع الأمم الآخذة من الحضارة بنصيب.

وهنا لابد من الرجوع إلى مسوغ هذا التفاوت أو التفضيل،وليس كل تفضيل جورا،بل إنه متى كان التفضيل لفضل ثابت،فهو العدل الصراح،وليس المفروض أن يكون هذا الفضل مطلقا بغير قيد أو شرط لجنس معين من الجنسين،بل إن التفضيل عقلا لا يصح إلا بحصول الفضل وتحققه،ويرتفع بارتفاعه ويوضع بوضعه ويتحول بتحوله.

ويتساءل نظمى لوقا:فما الفضل المشاهد للرجل على المرأة؟

وتأتى الإجابة:«إنه حاميها وإنه عائلها،وإنها تركن إليه وتلوذ به،وإنه أعلم منها وأبصر بأمور الدين وأمور الدنيا،وإنه أحظى منها بنصيب من المواهب والقدرات،

ولم يرد ذكر القوامة على النساء على إطلاقها للذكورة بغير بينة بل قيل: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ ، فهناك إذن وجهان لحصول تلك القوامة،هو إرباء الفضل والإعالة أو النفقة المالية،وشق الإعالة أو النفقة قد تجد له المرأة حلا فى نزولها إلى ميدان الأعمال،وقيامها على أمر معيشتها كالرجل أو أكثر منه وأحجى.

وأما إرباء الفضل فهو رهن بإصابة نصيب من التعليم،أو البراعة فى فن من الفنون،أو رجاحة العقل ونباهة الذكر،وهى مقررات الفضل بنص القرآن،،فقد جاء فى سورة المجادلة: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ ،ولا يغيبن عن البال ورود درجات بصيغ الجمع،وقد وردت فى سورة البقرة عند التعرض للمرأة والرجل بصيغة المفرد: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ ،وجاء فى سورة الزمر:﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

إن العلم يرفع صاحبه على من لا علم له،فالعالم خير من الجاهل والجاهلة، والعالمة خير من الجاهلة والجاهل،والمؤمن خير من الكافر والكافرة،والمؤمنة خير من الكافر والكافرة،والمجاهد فى سبيل الله بأمواله ونفسه خير من القاعد عن الجاهد والقاعدة،والمجاهدة فى سبيل الله بأموالها ونفسها خير من القاعدة عن الجاهد والقاعد.

لا تفضيل بغير فضل،ولا تشريف بغير تكليف،وإنما كان العرف جاريا بانحباس المرأة عن هذه المجالات،ومتى زال هذا العائق وارتفع عنها القصور،فهى حقيقة بثمرات فضلها،وقيامها بتلك التكاليف الجسام،ويذهب نظمى إلى أنه لا يعتقد أن المجاهد فى سبيل الله بالمال والنفس يكون بالحرب والفتح فحسب،بل وبكل عمل صالح لخير عباد الله بنشر العلم أو رفع المرض أو هداية الناس إلى ما تصح به

نفوسهم وييسرون به للخير ومرضاة ربهم فى أمور دينهم ودنياهم.

فليس الإسلام على حقيقته عقيدة رجعية تفرق بين الجنسين فى القيمة،بل إن المرأة فى موازينه تقف مع الرجل على قدم المساواة،لا يفضلها إلا بفضل،ولا يحبس عنها التفضيل إن حصل لها ذلك الفضل بعينه فى غير مطل ولا مراء،وما من امرأة سوية تستغنى عن كنف الرجل بحكم فطرتها الجسدية والنفسية على كل حال،وذلك على حسب عقيد لتكون لكل طور اجتماعى على تعاقب الأطوار على سنة العدل التى لم يجد لها عصريا اسما أوفق من «تكافؤ الفرص» الذى يلغى كل تفريق،ويسقط كل حجة ويقضى لى كل تمييز إلا بامتياز ثابت صحيح.

(٧)

وما دام الكلام اقترب من المرأة فلابد أن يقترب من الزواج،ويبدأ نظمى بسؤال : الزوجة الواحدة أو الزوجات الكثيرات؟،ويجيب:«هذا هو باب ما يثور حول موضوع الزواج فى دين الإسلام،فلابد من وقفة ها هنا لنتبين الحقيقة فى هذا،فمن المسلم به أن الدين لا يقصد به مستوى من البشر دون مستوى،ولا عصر من العصور دون سائرها،ولا بيئة من البيئات بعينها،وإنما يراد به التشريع للكافة وتنظيم حياة البشر من حيث هم كذلك،مع مراعاة فطرتهم السوية،ولكن مع الإشارة إلى ما فوق ذلك من درجات السمو التى لا يبلغ إليها إلا الخاصة وأولو العزم من الناس».

وعلاقة المساكنة بين الذكر والأنثى هى أساس الأسرة،وهى تنبعث من غريزة طبيعية ينظمها التشريع أو العرف الاجتماعى ما وسعه التنظيم،عسى أن يضع حدودا لتلك القوة الحيوية العارمة ترتفع بالإنسان فوق مستوى البهيم،وما من شك فى أن نظام الزوجة الواحدة الدائمة نظام مثالى،ومن البديهى أيضا ألا يطيقه إلا

المثاليون،وخاصة ذوى العزم،وما لهؤلاء فحسب جعلت هداية الدين.

ونظرة إلى واقع الحياة البشرية فى تاريخ مجتمعاتها الغابرة والحاضرة،تطلعنا على تعدد النساء فى حياة الرجل الواحد،سواء جهرا أو سرا،وسواء برخصة من القانون أو الدين،أو حسب القانون والعقيدة،وما من عاقل يفضل التعدد بغير رخصة على التعدد برخصة،فإن أثر الشعور الدائم بالإثم والاختلاس على السلوك البشرى بعامة أثر خبيث يسمم حلاوته ويعكر صفاءه الذى لا تتقوم السعادة الروحية والنفسية بغيره،فضلا عما فى العلاقات المختلسة من إضرار بالمرأة وإفساد لحياتها لا حيلة فيه.

ثم إن حياة البداوة والريف غير حياة الحضر،ففى الريف والبادية يعز القوت أحيانا ولا سيما على المرأة،وقد يكون فى عدد النساء زيادة عن عدد الرجال،فلا يصان عرض المرأة ولا تستقر معيشتها ماديا ونفسا إلا إذا صارت فى كنف رجل،وعندئذ لا حيلة فى التعدد؛ لأنه الحل السليم الوحيد،أو هو أسلم أساس لجماعت هذه حقيقة ظروفها،والضرورات تبيح المحظورات،هى رخصة إذن تستخدم بحقها،وعند حصول مسوغاتها الطبيعية من أحوال البيئة أو من أحوال الأفراد.

وما القول فى زوجة أقعدها المرض؟وما القول فى الزوجة العقيم،وما القول فى الزوجة الناترة؟وما القول فى الزوجة السقيمة الأعصاب.أطلاقها أرحم أم إردافها بزوجة أخرى؟لا شك أن الأمر واضح،هى رخصة إذن تستخدم بحقها ولكنها ليس إلا إلزاما،فهذه سورة النساء تقول بصريح النص: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ بل وتقول أكثر من هذا:﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾،وفى هذا إيحاء بل حض على التزوج بواحدة.

وليس من الإنصاف فى شئ أن نقيس هذا الحض بمقياس زماننا وآدابنا،بل بمقياس زمان الدعوة وآدابه،ففى تلك البيئة الصحراوية الجاهلية كان التعدد مطلقا من كل قيد،ومن هذا نفهم سر قول القرآن: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾،بلهجة من يعدد للطامع ما هو مباح ، بأسلوب يوحى بالتوسع، وهو يرمى إلى التضييق كل التضييق،وما أشبه هذا فى تصورى بالأب الذى يقول لطفله الشره إلى الحلوى: شرها لا يقف عند حد، أو لا يؤذن بقناعة دون العشرة والعشرين.

أما فى غير تلك البئية وشبيهاتها من بئيات البشر الذين تتوجه إليهم الدعوة،فالمسألة أوضح،ولن تضيرهم رخصة التعدد وهم على التوحد أو أقرب إليه طبعا ونشأة،ولهذا قال الله تعالى:﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ ،ففى ميدان الفضل والتعفف سعة،وبه يتفاضل الناس بعضهم فوق بعض درجات.

ولا يتم النظر فى موضوع الزواج ما تعدد منه وما توحد،من غير النظر فى كيفية الزواج أو نوع الصلة الزوجية،إنها ليست مسافدة حيوانية بين ذكر وأنثى،على إطلاق بواعث الرغبة والاشتهاء الغريزى بين جنسى النوع البشرى،لغير هذا قامت كوابح الآداب وضوابط الشرائع والعقائد:﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ .

وفى قوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ لمسة تمس شغاف القلب،وتذكر بما فى الزواج من قربى تجعل الزوجة قطعة من النفس،خاصة أنه أردف ذلك بالسكن،وما أقرب السكن فى هذا الباب من سكينة النفس لا من مساكنة الأجساد،بدليل ما أردف بذلك من المودة والرحمة،مشاطرة نفس وسكنها وسكينتها،ومودو ورحمة،ما من شئ فى هذه كلها من خصائص المتعة الشهوية والرغبة الجنسيةالبحتة،فإن الشهوة تأخذ وتنال،وهى معتصمة بأنانيتها وانعزالهاعن الطرف الآخر،ولا تزيد بعد مآربها

إلا شعورا بالعزلة والحدو الموحشة،وشتان هذه والمشاطرة وسكن النفس والمودة والرحمة.

إن الزواج مطلب نفسى وروحى عند الإنسان،وليس مطلبا شهويا جسديا وإن كان له أساس جسدى،ورب قائل يقول :أما والزواج كذلك ففيم التعدد إذن؟وإن كان رخصة يهتبلها من شاء ويتنبكها متعففا من شاء؟أما كان التوحد هو السبيل إلى السكن النفسى بمعنى الكلمة؟

ويجيب نظمى لوقا على هذا السؤال:«والجواب أن هذا صحيح من حيث المبدأ ولا مراء،ولكن المبادئ قلما تعيش فى دنيا البشر فتتيسر فى أمور هى أمس ما تكون بالحياة اليومية والحقائق المادية،فأين هى الزوجة التى تملأ جوانب الرجل النفسية وتسكن إليها نفسه سكنا كاملا حتى لا يفتقد فى كنفها لونا من السكينة والطمأنينة كان يرجوه أو يشتاق إليه،إن ذلك قليل أقل من القليل».

يقول سليمان الحكيم الذى عرف ألوف النساء من جميع الأصناف والألوان،وقد اجتمع فى وطابه من التجارب الزوجية والنسوية ما لم يجتمع لإنسان:«الزوجة الفضلى أثمن من اللؤلؤ النفيس..من ذا يجدها؟»،إن من وجد هذه اللؤلؤة بين النساء أن تهفو نفسه إلى سواها،بل يتعلق بها تعلق الطفل بصدر أمه لا يرضى به بديلا ولا يروم عنه حولا.

وأما من لم يجدها ففى نفسه أشواق تظل ظمأى تتلفت سادية تنشد ريها هنا وهناك،وهذا واقع نلمسه كل يوم وكل ساعة،فى رجال محصنين بالزواج،تصبو نفوسهم إلى غير زوجاتهم،فى علاقات مختلفة،ومن هنا يكون فى رخصة التعدد ملاذ يكفى الناس شرين: أولهما شر التورط فى الآثام التى قد تشوه النفس مهما أرضت نوازع الأشواق الجسدية،وثانى الشرين تطليق الزوجة القديمة لتفسح للزوجة

الجديدة مكانا فى نظام التوحد،وقد تكون للزواج الأول ثمرا تذوق التشرد،وقد تكون الزوجة الأولى مثقلة بالسنين والعلة أو الأبناء أو عاطلة من الجمال،خالية اليد من مهنة،خاوية الوفاض من مال فتتقوض حياتها،ولعلها كانت تؤثر البقاء فى كنف زوجها على كل حال.

ولو نظرنا إلى حياة الرسول نفسه لوجدناه لم يشرك فى فراشه أحدا مدة حياة خديجة،وقد طال زواجهما ربع قرن تقريبا،هو طور الفحولة فى حياة الإنسان،ما بين الخمسة والعشرين والخمسين،ولم تتعدد زوجاته إلا بعد وفاتها،وكانت السيدة خديجة الزوجة المثلى فى حياة الرسول،ظل يشهد بذلك ويغار عليها إلى ختام أيامه،ويؤكد لعائشة الصغيرة البكر أن الله لم يبدله بخديجة خيرا منها قط.

زوجة مثلى ملأت فراغ النفس فسكن إليها،ولما ذهبت تركت فراغا هائلا لم تستطع واحدة أن تملأه،وأكاد أحس أن الكثيرات عجزن عن ملء هذا الفراغ الكبير على وجه التمام،وأيا كان التعدد بموجبات الرخصة فلا تحل فيه المغايظة والإضرار الأنانى اللئيم.

ويشير نظمى لوقا إلى ما يذهب إليه المعتزلة من تحريم زواج الرجال بثانية ما دامت الأولى فى عصمته لما فى ذلك من المضارة للزوجة وهى سيئة لا يستحسنها العقل،ويعتقد أن هذا من باب السمو الذى يحض القرآن عليه،إذ أشار إلى الاكتفاء بواحدة خيفة الظلم الذى لا مناص منه فى حالة التعدد،ولكن الرخصة واضحة والحكمة منها قاطعة بأن التعدد غير محرم لمن عجز عن الخطة المثلى وهى التوحد،رخصة مبذولة لا مندوحة عنها،والمرتقى فوق ذلك مفتوح لمن استطاع وهو محمود.

ويتعرض نظمى لوقا إلى ناموس الزواج أصلا،خاصة بعد أن أشاعت المسيحية حوله جوا خاصا،خلاصته أن العفة أو الرهبانية هى الأصل،ومن لم يستطع ذلك

فليتزوج،فكان الزواج رخصة يرتخصها من لا مندوحة له من ذلك،ولا شك أن هذا المفهوم مرتبط بفكرة الخطئية الأولى،واعتبار أن العلاقة الجنسية شر فى ذاتها ولذاتها،وأن الجسد كله عورة بكل رغائبه وطلبه للطيبات من الدنيا،فهذا الترهب مع النسك والصيام المسيحى العزوف عن أطايب الأدام، أدلة على الضيق بالبدن وازدرائه وصحبته على مضاضة،والنظر إلى مطالبه وإلى زينة الحياة الدنيا جملة نظرة عداء وخصومة.

وطبقا لتلك النظرة فالبدن شر لابد منه،وكذلك الزواج،والخير كل الخير فى محاربتهما وعدم الانسياق لهما والإخلاد إليهما،حياة لا طمأنينة فيها ولا قرار،وإنما هو الصراع المستمر والقلق المستمر،الذى تفسد به الدنيا،وتعيا به النفس،وقد كشف لنا العلم الحديث عن العلل والآفات المخزية التى تسمم ينابيع الحياة بسبب الشعور بالتأثم من الجسم وغرائزه النوعية.

إن الإسلام لا يقاوم الحياة بل يقر الفطرة البشرية على تقديسها،وصيانة ينابيعها من الأكدار،ولا يفصل بين حياة الروح وحياة الجسد،حيث لا انفصال لهما فى واقع الجبلة التى جبلها خالقها الحكيم الخبير.

ومن فطرة الزواج إلى الطلاق يرى نظمى لوقا أن الكراهة أمر لا يسوغ البدار إلى فصم العروة الوثقى كما جاء فى سورة النساء:﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾،إن الأساس فى ذلك العقد أنه لا ضرر ولا ضرار:﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ كما جاء فى سورة البقرة،وإن ذلك لمسبار الخلق الكريم الذى يترفع فى سمت الفروسية عن الإتئات اللئيم والجور اللئيم،حتى أن الرسول قال فى خطبة الوداع:«استوصوا بالنساء خيرا،فإنهن عوان لكم،لا يملكن لأنفسهن شئيا وأنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله».

إن الرجل يمسك المرأة ويقوم على أمرها فى كنفه،فهى تحت رحمته،ومن ثم وجبت عليه الرحمة بها ولم يجز له الاستبداد بأمرها،إنها أمانة الله فى يده وعنقه،وليس بعد أمانة الله محرجة لمن ألقى السمع وهو شهيد.

لكن ذلك لا يمنع نظمى لوقا أن يقول: أنه يعسر جدا تصور زواج بغير طلاق بصورة من الصور،فالزواج نظام جعل لإسعاد الناس وصلاح أمور حياتهم،ولم يجعل ليكون الناس عبيدا أو ضحايا للزواج،فالزواج الذى تستقيم به حياة الإنسان هو الذى يستحق الإبقاء عليه،أما الزواج الذى تفسد به حياة الإنسان ويتطرق إلى العطب والعفن وصديد الحقد والسخط،فهذا ينبغى أن يبتر قبل أن يقضى على فرصة الحياة الفذة المقدسة،كما يبتر العضو الفاسد من الجسم حرصا على بقاء الجسم كله مهما كان ذلك العضو المبتور عزيزا.

فلا ضرر ولا ضرار....قاعدة ليس أحكم منها فى جميع شئون البشر ومعاملاتهم وهذه هى القاعدة الإسلامية العامة،إن فرصة الإنسان فى الحياة واحدة،ففيم نجعلها عذابا مقيما لزوجين تبين أن الوفاق بينهما مستحيلا،وأن حياتهما معا إهدار لحياتيهما لا محالة.

إن التطبيق العملي أثبت ذلك،وصارت أمم الغرب المسيحية تجيز الطلاق فى قانونها بواسطة المحاكم،وذهب بعضها إلى التوسع فى أسباب الطلاق وإجراءاته حتى كأنها مهزلة شكلية،ثم ما قيمة سعادة يسعد بها الإنسان،إن كان يدرك ويحس أنه محكوم عليه بهذه السعادة ولا فكاك له منها بأى حال من الأحوال،إنها تكون سعادة جبرية لا اختيار فيها ولا حرية،والشعور بالحرية والقدرة على اختيار الموقف والمصير هما حجر الأساس فى كل إحساس بالكرامة البشرية،وبغير تلك الكرامة لا قيمة لسعادة مفروضة مهما استطالت.

إن السعادة الحقيقة هى التى يشعر معها الشخص أن الباب أمامه مفتوح،وأنه لو قدر له أن يملك زمام الاختيار من جديد ما اختار إلا ما فيه،إن رخصة الطلاق دواء مر المذاق،أو جراحة موجعة،ولكن من ذا الذى يلغى التداوى كراهة المرارة،أو يحرم الجراحات كراهة للآلام والمصائب.

لابد من الدواء ومن الجراحة،ما دمنا نعيش فى عالم كون وفساد،وصواب وخطأ،وصحة ومرض،وحكمة وحماقة،بحيث لا عصمة للبشر،لابد من وسيلة لتدارك الأخطاء،وإعطاء الفرصة لبنى آدم وبنات حواء كى يبدأوا من جديد بناء سعادتهم فى الدنيا بإقامة أركان أسرات سليمة الصرح،يعمرها الأمن والمودة والرحمة.

والإسلام يضع رخصة الطلاق فى موضع الداوء الكريه المذاق أو موضع الجراح،ولا زيادة،ولا يكون اللجوء إليه إلا بعد استنفاد الحيلة فى إصلاح ذات البين،فقد جاء فى سورة النساء:﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ ،فإن عجز حكم من أهلها وحكم من أهله عن إصلاح ذات البين،فقد آن إذن أن يكون تسريح بإحسان لأن الإمساك بالمرأة على كراهة بينة لا يرجى لها علاج يكون مضارة لها،والقاعدة المثلى فى الإسلام أنه «لا ضرر ولا ضرار»،ولذا جاء فى سورة البقرة: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ .

وليست المرأة فى جميع الأحوال تحت رحمة الزوج إمساكا وتسريحا،إذ يجوز أن تكون عصمة المرأة بيدها إن شرطت ذلك عند عقد الزواج،فيكون زمام الحياة الزوجية فى عنقها إن شاءت أبقت وإن شاءت فصمت،وهذا هو الحد الذى يقول العقل إنه لا يجور على حقوق السعادة الفردية،ولا يجعل الزواج أحيانا عاهة مستديمة بغير مبرر عقلى وبغير مصلحة لكائن من كان.

وقد يحتج محتج بمصلحة الأولاد،وتلك رتب الإسلام فيها أحكام النفقة وأحكام الحضانة،ثم ما من أحد يقول : إن تربية الأطفال فى كنف أبوين متفاهمين أمر يستوى وتربيتهما فى كنف أحدهما دون الآخر،ولكن المسألة هى أنه إذا امتنع التفاهم بين الأبوين كان من الخير ألا ينشأ الأولاد فى ذلك الجو الحاقد اللدود،فذلك أهون الشَّرين لهم،وهو كذلك أهون الشرين للأبوين،وهى على أى حال آفة لا يقبل عليها عاقل وله عنها مندوحة.

وقد لعن الرسول من يستخدمون رخصة الزواج بغير حقها الإنسانى والشرعى،قضاء لمآرب وضيعة،فجاء فى الحديث الشريف:«لعن الله كل ذواق مطلاق» و«ولعن الله الزواقون والذواقات»..«ولعن الله كل مزواج مطلاق»،وأما القول بأن يكون القاضى هو الذى يصدر الطلاق لأسباب محددة،مثل الزنا فقول فيه وجه غضاضة؛لأن التحاكم فى درو القضاء فيه ابتذال للأعراض حتى تغدو مضغة فى الأفواه وعرضة للجاجة والملاحاة.

إن صوَّرن الأسرار وأسباب الفراق هنا أليق،وفيه من النخوة والبصيرة الشئ الكثير،حتى لا توصم المرأة بما يعيبها ويعوق زواجها مرة أخرى،وحتى لا يوصم بناتها أو أبناؤها بما تردد فى قاعات المحاكم من مثالبها،وما قد يصدر حكم القاضى تأسيسا عليه.

ثم كيف لنا بتحديد الأسباب التى تجيز الطلاق بناء على طلب الرجل؟

إن الزواج صلة حميمة وقد لا يرى الغريب فى المرأة عيبا،ولكن يجد الزوج فيها عيبا كبيرا،وليس من الضرورى أن يكون العيب جسميا أو محسوسا،فهناك اختلاف الطباع مع كمال الأدب فى الزوجين،بحيث يمتنع بينهما الامتزاج والتفاهم،أما ترى إلى الماء قد يكون من أجود الماء،وإلى الزيت قد يكون من أجود الزيت،ثم لا يمكن

أن يكن بينهما امتزاج لاختلاف المعدنين.

كذلك الناس معادن شتى،قد يطيب كل معدن منها على حدة،وليس ضربة لازب أن يمتزج أى معدنين منها على الوجه الذى تستقيم به حياة الزواج،وعندئذ يكون الافتراق خيرا وأولى،لأن كلا من الزوجين قد يصلح كل الصلاح للزواج بآخر ويحيا حياة سعيدة،فلا عيب فى الدواء إذن،ولا يطعن فى صلاحه أن تطبش به يد أو يشتط لسان،فلا يطعن على الماء أنه قد يشرق به المشارب أو يغرق فيه المغتسل،ولا يطعن فى النار أنها قد تكون حريقا لا يبقى ولا يذر،فالمعول كله على تقوى الله ثم على حسن البصر ومراعاة الحذر.

ولا ينهى نظمى لوقا كلامه عن الزواج والطلاق فى الإسلام،إلا بكلمة عن جواز المسلم بالكتابية – يهودية كانت أو نصرانية – فى حين يمتنع العكس،أى زواج الكتابى - يهوديا أو نصرانيا – بمسلمة.

يقول نظمى:«إذا تذكرنا أن الإسلام يعترف باليهودية والنصرانية ولا يجحدهما،عرفنا أنه لا غضاضة على الزوجة الكتابية فى الاحتفاظ بدينها وهى زوج للرجل المسلم،ولكن اليهود والنصارى جرى تقدير رجال الدين عندهم على إنكار الإسلام،فتكون المسلمة غير آمنة على دينها فى كنف الكتابى،وليست المسألة إذن مسألة عصبية أو تحيز فى كثير أو قليل »

(٨)

ينقل نظمى لوقا شراعه إلى مساحة أخرى،وتحت عنوان :لا قيصر،يقول:«أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله»...عالم مقسوم شطره لله وشطره لقيصر،عالم مقسوم،شطره للقلب والروح وشطره للحس والبدن،عالم مقسوم،شطره للدين وشطره للدنيا،عالم مقسوم،وعلى المرء أن يختار شطرا منه ويتخلى عن شطر،ويجعل

بينه وبين الشطر المتروك سد،سدا من عداء،أو سد من إذعان سلبى هو كالعداء سواء بسواء».

تلك هى دعوة السيد الناصرى،وقد عدل بها عن سنن اليهود فى تعلقهم بالملك،وحرصهم على الدنيا،وجعل العزة للروح،ونادى بتحقير الدنيا ونبذها بما فيها من مال وحس وبدن وملك وسلطان،أقيصر بيده مقاليد الدنيا؟قل إذن ما هى الدنيا،لإنك بعدها لخليق أن تقول :وما قيصر؟ فليذهب قيصر بالدنيا على رحبها،فأعظم ما فيها عندئذ هين،وأجل ما يكون من أمرها حقير،ما سلمت لك نفسك التى بين جنبيك من شوائب الدنيا،وزهو السلطان وفتنته،فإنك فى حزب الله أجل من قيصر شأنا،لأنك أحظى منه سكينة نفس وأمنا وأهدى منه سبيلا.

ذلك نصيب من نفضوا من الدنيا أيديهم،بل ونفضوا ترابها من نعالهم،وسلكوا إلى ربهم مرتقى عسيرا إلا على من يسرهم المولى له،وهم قلة نادرة بين العالمين،أما سواد البشر وهم ملايين ومئات الملايين فلا هم قادرون على الانسلاخ من الدنيا التى تضج فى دمائهم قبل أن تضج فيما حولهم من المغريات والمقيمات المقعدات،ولا هم قادرون إزاء هذه الدعوة أن يقبلوا على الدنيا بقلب سليم وعزم مقيم،وإنما هو الفصام،وإنما هو التعلق بين السماء والأرض،عاجزين عن اليقين،حيارى مالهم من قرار.

أعز مكان فى هذه الدنيا إذن دير من الديور أو صومعة مفردة فى مفازة بيداء،لا يطرقها طارق،ولا ينعق فيها ناعق يخلو فيها العابد لوجه الله فما الدنيا للإنسان بدار،وإنما هو قد نعاها وجفاها،وما لبثه فيها إلا ريثما يقبضه الموت فيتم عليه ما اعتزمه منذ أمد بعيد وأوغل فيه من ترك الحياة،وما كل امرئ بقادر على أن يكون راهبا فى دير أو ناسكا فى صومعة،ولو قدر كل إنسان على ذلك لاضمحلت الحياة

وباد منها بنو آدم وورثها من الوحش وخشاش الأرض الوارثون.

وما كان تقاعس الناس عن هذه الخطة ضعفا منهم أو عجزا،بل مطاوعة منهم لفطرة الله القاهرة التى فطرهم عليها حين ركب فى نفوسهم حب الحياة والإقبال عليها غير مختارين،فلو كان مراده سبحانه من الخلق أن يستدبروا الدنيا ويخلعوا الحياة من وجدانهم ومقاصدهم،ففيم إذن كان خلقه للدنيا وخلقهم فيها،وخلق محبتها فى قلوبهم فطرة لا حاجة معها إلى تعلم أو إكتساب؟،وتلبث فطرة الخلق،وثابر الناس على انصراق إلى الحياة،لا الانصراف عنها،فكان لابد من موقف من قيصر،وفى يده مقاليد الدنيا.

كان إذن لابد من انشغال الخاطر بأمر السلطة وأسلوب الحكم وليس فى الإنصياع السلبى والتسليم للحكومة أى معنى من معانى الاهتمام،فالاهتمام هم ومشاركة وعمل،وبأى سند من المبدأ أو العقل أو العقيدة تتصدى لذلك الاهتمام بالحكم وأسلوبه،وقد قسمت الأمر بين ما هو لله وما هو لقيصر،فجعلت من قيصر فى الدنيا ندا لله فى عالم الغيب والسريرة،ولابد هنا من وقفة حاسمة وضربة قاصمة،حتى يصير الأمر كله لله،بين دنيا الإنسان وأخراه.

ولهذا أيضا تصدى القرآن وانبرى الإسلام فمحا تلك القسمة،ووحد مملكة الحق صقلا وعلوا،فجاء فى سورة الأعراف:﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ،فمن يكون هنا قيصر؟بل أين هو؟لا قيصر بعد اليوم،﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾، ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾،» ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ الله أكبر ولا قيصر بعد اليوم،وليس قيصر الروم وحده هو الذى نعنيه حين نقول قيصر،بل كل حاكم يسوم الرعية الخسف،ويستمد من غير الحق والعدل والأصول الإلهية سلطانه على الناس،لا قيصر بعد اليوم بين قوم

يؤمنون بأنه لا إله إلا الله، ﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾، ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ ،كما جاء فى سورة الشورى.

بل إن الرسول وهو الحكم الأول زمانا ومقاما وقدوة،كان عليه أن شاور المؤمنين فى الأمر،وكذلك كان يفعل،فقد ورد فى آل عمران: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ أتعطى ما لله لله وما لقيصر لقيصر؟ومن ذا يملك من الأمر شئيا غير الله،فهذا هو رسوله والحاكم الآمر باسمه يجابه فى آل عمران:﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ ،ويقال له فى سورة ق:﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ ،لا جبار على المؤمنين، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ كما جاء فى سورة الحجرات.

الحاكم إذن يقوم باسم الأمة،وأى أمة، ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ ،كما جاء فى آل عمران،هى أمة إذن وليست ملكا موروثا،المؤمنون فيها أخوة وليس عليهم جبار،وحكم الله فيهم شورى بينهم وليس حكمه فيهم لأحد يتحدث باسمه أو يحتكر السلطان على الناس أو الجماعة منهم كأنهم أرباب لهم منزلة وسط بين الله والناس...لا كهان ولا أحبار،وإنما الأمر كله لكتاب الله وما أخذ به عباده من سنة ارتضاها لهم.

وهكذا تنسق السرائر المظاهر،وتكون حكومة الناس سورة من عقيدتهم،يحكم الحكام بما أمر الله،وليس له أن يكون على الناس جبارا،وليس له أن ينفرد بالأمر دونهم،بل إنه لا يكون حاكما إلا بإجماع منهم،وعندئذ تجب عليهم الطاعة له ما عدل واتقى،وعليهم أن يعينوه على الأمر بالمشورة والرأى والطاعة:﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ .

فى حدود البر والتقوى ولاعدل اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد

حبشى كأن رأسه زبيبة،كما جاء فى الحديث الشريف،للحاكم على الناس الطاعة،ولهم عليه أن يعدل،ويتقى الله،ويشاورهم فى الأمر،وأن يخفض لهم جناحه.فما هو إلا مؤتم برسوله،وقد قيل فى سورة الشعراء:﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ ،أما إن ضل وغوى وأعجبته نفسه وفتنه سلطانه،فقد غدر بالبيعة التى له فى أعناق الناس إذا جار عليهم،وما كان لهم أن يعينوه على الأمر،حتى لا يكون تعاون على الإثم والعدوان،وما هلك الأمم من قبلهم إلا لأنهم ﴿لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُ ﴾،كما جاء فى سورة المائدة،ولذا كان أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر،كما قال صاحب الرسالة فى حديثه الشريف.

الأمر لله جميعا،والمؤمنون أمة واحدة،وفى أعناقهم أمانة دينه وحقه وعدله،فمن فرط فى شئ من ذلك كان مجترحا لأمر عظيم،أليس الرسول هو القائل فى كلماته الجوامع:«كما تكونوا يولى عليكم»،بلى ..فهل يقوم جائر فى قوم طبعوا على العدل،والحق وكرامة العدل والغيرة على الحق،بلى...ولن يقوم عادل فى قوم بهتان وذل،فإنه خليق أن يتعلم من تطامنهم الشموخ ومن انقيادهم الاستبداد....«فكما تكونوا يول عليكم».

ويتحمس نظمى لوقا للفكرة أكثر يقول:«أجل يا رسول الخير والصدق والحق،فالناس بخير وحكومتهم بخير ما بقى للحق فى قلوبهم مكان،وللغيرة على العدل فى قلوبهم الكلمة والسلطان،وما يئس المنكر أن يجد فى قلوبهم الإغضاء والتواطؤ،وما أبوا أن يجعلوا ممن يحكمون بالجور شركاء لله بالاستكانة والإذعان،صدقت يا رسول الصدق،وصدق بمدد منك الإمام محمد عبده حين قال:إن المعول كله على يقظة الأمة وأنه إذا فقدت الأمة شجاعة إيمانها فلا خير لها

فى شئ من مظاهر المنعة والحرية والاستقلال».

ويتساءل نظمى بعد ذلك:أشورى بلسان ولا قلب..واجتماع ولا صدق؟

ويجيب:«ذلك هو النفاق الكبير .وشاورهم فى الأمر،ولكن هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون،وما هو بسؤال وإنما هو إنكار واستنكار،إذن : ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

اسألوا أهل الذكر،من يذكرون الله ويصدقون ويتقون،لا الذين يذكرون مصالحهم ومآربهم ويتزلفون،ومن يبتغون المال والجاه: ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ ،والأمة بخير ما أوتيت شجاعة الإيمان،والحكومة بخير ما وجدت ذلك الإيمان لها على رصد ساهر لم ينم،ذلك : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ ، أجل كما تكونوا يول عليكم»،ذلك الحديث الشريف، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

وكأنه يخطب فى قوم أمامه يقول نظمى:«أيها الناس أمركم إليكم وحكومتكم منكم وبكم وإليكم،وكلكم الله إلى إيمانكم ، وأراد بكم الخير فلا تريدوا بأنفسكم الضير،لا قيصر بعد اليوم،بل لله الأمر جميعا،والله فوضكم فى أنفسكم ولم يجعل عليكم وكيلا ولا كاهنا ولا جبارا،وإنى هو إيمانكم وعقلكم ،وما هلك الأمم من قبلهم إلا لأنهم : ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾.

وكأين من مفرط ترك راية العدل تسقط من قلبه اتباعا لسلطان جائر أو طمعا فى قربى لديه،فقد أشرك بالله وباع دينه واتبع قيصر،وكفر بأن الأمر كله لله،الذى له ملك السموات والأرض.

فبمثل هذا يكون الملكوت فى الأرض،وبمثل هذا تكون عمارة الأرض،وبمثل هذا لا يكون المؤمنون بالله أذلاء بإيمانهم أمام الطاغوت،مستضعفين فى الأرض،ولا يكون من تجبر وخرج على الله أقوى فيها مما قال ربى الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾

[فصلت :٣] حقا ليسوا كمن قالوا ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [النساء:٩٧]....تلك عقيدة تمت دنيا ودينا؛لأن الدنيا فيها مسبار الدين،والإنسان فيهاد مسدد اليقين،لا يعبد إلا ربا واحدا،حكامه فى الأرض خدامه وصالحوه،هو على نفسه ودينه وكيل مسئول وليس عليه فيها جبار.

(٩)

ثم ينزل نظمى لوقا إلى محيط المسلمين وغير المسلمين وكيف نظمت رسالة محمد سبل التعامل بينهم،يبدأ حديثه من الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾...يسأل:هذا مسلم به ولكن ما القول فى غير المسلمين؟

ويجيب بمنطوق الآيات القرآنية:﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ....سورة البقرة.

ويسأل مرة أخرى:«وما هى علاقة الأمم والشعوب فيما بعضها وبعض»؟

ويجيب بمنطوق آية أخرى:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ ....سورة الحجرات.

لتعارفوا ..هذا لباب الصلة بين قوم وقوم وشعب وشعب،إنما هى المعرفة والعرف والمعروف،والأكرم بينهم أكثرهم تقوى،ولا تعرف عقدة إثم ولا تعنو حياة الخلق فيها لغير الله.

أفهى شريعة مساواة؟..إنها لشريعة مساواة،وما هى شريعة تسوية،هى شريعة عدل،والعدل أن يؤتى كل ذى حق حقه،وأن يكون التقدير فرعا عن القدر،كذلك تتفاضل الأقمار والأشجار،أفلا تتفاوت بين الناس الأقدار؟...«ولقد فضلنا الذين يعلمون والذين لا يعلمون»...حاشا وكلا..لا يستوون،وإن كابر الجاهلون،أو ظلم

الظالمون،وإنما كانوا أنفسهم يظلون،بل :﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾... ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾...﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾... ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ .

كل إذن ينال على قدر عمله،ولكن بغير بغى،ذلك أنه يريد: ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ ليبلوكم..وبغير حبس الأرزاق أو استغلال للشراء أو إيثار للأموال على المصلحة العامة،﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾.

وسبيل الله منه ما هو حرب عدو بالسلاح،وما هو دفع بلاء داخلى أو إصلاح أو منفعة عامة للجماعة كافة،فذلك هو سبيل الله حقا؛لأن الله غنى عن العباد،وإنما يريد وجه الله من نفع الناس وخفف علتهم ويسر لهم أمور معاشهم،فذلك هو الإحسان وابتغاء سبيل الله: ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾ ،يتداولونه فيما بينهم استئثارا أو احتكارا،وتلك قمة العسف بالناس وإذلالهم وإعناتهم فى أرزاقهم.

كل فى هذه الشريعة ينال على قدر عمله وفضله:﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾،سيرى المؤمنون عملكم،وسيحاسبونكم عليه ويقدرونه لكم،كما يقدره الله،هو العمل إذن،ولكن لا للمعاش والمنفعة الذاتية فحسب،بل ابتغاء مرضات الله ومرضاة الناس ومرضاة خير الجماعة،وعلى قدر هذا يكون التقدير.

ويضرب نظمى لوقا المثل بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذى ذهب فى تقدير العمل النافع البناء لخير الأمة إلى حد ما بعد مزيد،يقول:«والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة»،ومن قال هذا فقد أراد الصحيح أو الإيمان الصحيح هو دين العمل النافع للناس: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ ﴾...ذلكم هو العمل وذلكم هو الفضل،وذلكم هو الفوز العظيم،وليس اكتناز المال ،واقتناء الصروح والضياع،والاستكثار من الزخرف والمتاع،وليس البر فى البطالة والسجود،أو حبس الأموال مع الصيام والتهجد،كلا: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ﴾ .

وعند قوله ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ وقفة لمن ألقى السمع وهو شهيد،الله يعلم بحب الناس للمال،وهو القائل:﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾،ولكن الإنسان المؤمن حقا من يؤثر الواجب على هوى نفسه،ويبذل المال لمن تجب عليه صلتهم،فإن صلة الخلق قربى إلى خالقهم،فإنه بذلك يقرض الله قرضا حسنا.

اعمل ويسر للناس أن يعملوا،ولا تحبس المال عن التداول بين أيديهم ، وابذل مالك على حبك له للقرباء واليتامى والمساكين والسائلين،ثم عليك بعد ذلك الزكاة «فريضة من الله»،فريضة لا يراد بها الكسالى،بل من أقعدتهم عن العمل هو الأساس،ثم من لم يجد عملا فعلى الجماعة واجب إعالته من مال الزكاة،دين عمل ..لا دين بطالة واستجداء.

ويعود نظمى لوقا مرة أخرى إلى كلمة «على حبه»....لأنها باب جانب كبير من العلاقات الإنسانية فى دين الإسلام،وإنا لنجدها حيثما ذكرت الصدقة،سواء بالمال أو بالطعام،فجاء فى سورة الإنسان:﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ ،وفى سورة البقرة:﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾ ،ففى ذلك مغزى الخلق الإسلامى وخاصته المميزة،فليست هذه الفروض من الأمور التنظيمية للمجتمع

فحسب،وليست من الأعمال التى يبتغى بها وجه المصلحة الاجتماعية ورقى المعيشة فى الأمة وصلاح الأحوال بموجب عقلى،بل هو فعل خلقى فى المقام الأول يبتغى به وجه العاطفة الخلقية:وجه الواجب.

والفرق بين فعل عقلى وفعل خلقى فى هذا المقام،هو الفرق بين ما هو بوحى من العقيدة وما هو بوحى من المصلحة،ضاق صداها أو اتسع،فأننا نرى اليوم أمما بلغ عندها الفهم العقلى والتنظيم الاجتماعي المادى غاية مداه،ورفرف اليسر على أعضاء الجماعة،ولكنهم لا يحسون سعادة نفسية بذلك الرخاء؟

ويأتى السؤال :لماذا؟

والإجابة:«لأن هذا هو الفيصل بين الروح والمادة،بين العقيدة والعقل،بين العاطفة والمصلحة،بل بين الله والإنسان،إن التنظيم الإجتماعى العقلى أو المادى يستوحى تحسين حال المجموع بعامة،تحسينا ينعكس على كل فرد فى ذلك المجموع،ولكن السؤال الكبير هو أن هذا التحسن أو التقدم أو اليسر أو الرخاء،يصيب ماذا؟أو يصيب من؟...إن التقدم المادى تحسين لظروف الآدمى،وليس تحسينا لذات الآدمى،وتقدم لأحوال الإنسان،وليس تقدما يصيب ذات الإنسان ووجدانه،إنه رقى فى الكمية وليس رقيا فى كيفية الإنسان أو وجدانه أو قيمته من حيث هو ذات واعية شاعرة ناطقة.

إن الإنسان المتقدم بمادياته وأحوال معاشه فحسب ليعجزه أن يجد لذلك طمعا ودانيا عميقا،أو رقيا فى قيمته ونهوضا بمعنى إنسانيته،إنه كالبغل المزركش ولا زيادة،أما الإنسان الذى يحس ارتباطا بين قيمته وبين قيم الكون الكبرى،وبين أفعاله ومقاييس الأبد،وبين وجدانه وحقيقة الوجود،فالرضوان الذى يشعر به من أفعاله الأخلاقية وحسناته الإيمانية رضوان إنسانى لا حيوانى،روحى لا حسى،بحيث

يفيض عليه من الأبدية ضوء ينير له مزيدا من الارتقاء فى الرضوان والسعادة يمتد إلى ما وراء القبر.

وهذا هو الفيصل الأكبر بين سعادة المؤمن ورفاهية المادية بين يقين الروح وضياع المادة،بين حس الأخلاق وحساب المصلحة الاجتماعية مهما امتد أفقها واتسع محيطها وعم رخاؤها،وهذه هى أخلاق الإسلام:بذل المال والطعام على حبهما،ابتغاء لما فى الإيثار من شعور بالنجدة،وقياما بالواجب الإنسانى والفرض الإلهى،وطموحا إلى نعيم لا يزول بعد ئذ لمن عمل صالحا.

أخلاق أساسها الشعور بالواجب،والقربى إلى الله فى كمال صفاته وآلائه الحسنى:«ولله المثل الأعلى»،وأى مثل أعلى يلتمسه الإنسان ويخطئه فى أسماء الله الحسنى؟إنه الرحمن الرحيم العليم الخبير اللطيف البصير السميع المجيب الودود،إلى آخر تلك الآلاء التى جلاها لعباده حثا لهم لا إعجازا:﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾...﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾.

إن المصدر السماوى للأخلاق فى العقيدة الدينية هو الحافز الدائم للمرء،على الارتفاع بنفسه وسلوكه وعواطفه فوق طبيعته الأرضية ورغائبه الحسية وأنانيته الحيوانية...«وابتغاء وجه الله»..هذا هو الحافز الأكبر على مكارم الأخلاق،وبعد هذا فلا حرج على من يطلب مصلحة المجتمع لسبب عقلى،ومن ينظمها لهدف مادى،فالإسلام لا يلغى العقل ولا يجحد المادة،ولكنه يضعهما فى حدودهما ولا يعدو بهما قدرهما الحق،فهما بغير القيمة الروحية لا يجديان الإنسان فتيلا،فيكون كمن ختم على سمعه وبصره:﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾.

إن التقدم المادى بغير السمو الروحى عمى مطبق،وقعود عن التحليق وارتباط

وخيم بتراب الأرض،ولو جعلته تبرا أبريزا،وبعد هذا السمو الروحى،فمصالح الناس المرسلة أهل للرعاية وهم أعلم بشئون دنياهم،وليس التنظيم الإسلامى لأمور الدنيا بنظام مقفل جامد،بل هو التنظيم الجوهرى الذى لبابه قول صاحب الرسالة الكريم:«لا ضرر ولا ضرار»..«وأنتم أعلم بشئون دنياكم».

فما لم يرد فيه نص بتحريم لسبب من أسباب العقيدة الروحية،فلا بأس على الناس فيه،ما لم يكن فيه ضرر لصاحبه أو إضرار بسواه،خلق كريم،وإيثار ونجدة إبتغاء وجه الله،واتقاء لغضبه فى معاملة الناس،وإصلاح لحال الدنيا من غير إضرار بالناس،وحرص على مصالح الجماعة،وتعاون على البر والتقوى وابتغاء الرزق بالعمل،وكفالة المتعطل والعاجز عن الكسب بالزكاة،وترفع عن الترف والإسراف فى البذخ حتى لا تستنيم الروح لشهوات الجسد،فذلك هو النموذج الكامل للإنسان،يحب إخوته فى الله،ويوفق بين دنياه وأخراه،ويقهر شرة الحس فى معمعانه لا فى صومعة بفلاة،...إن ذلك لهو الفوز العظيم.

(١٠)

وإذا كانت رسالة محمد تدعوك إلى أن :«ولا تنس نصيبك من الدنيا»...فإنها أيضا أرادت ألا تلهى الدنيا الإنسان عن ذكر الله،يقول نظمى معلقا على ذلك:«أذكره فى كل حين،ولكن عليك فرض من ذكره مفروض،فى أوقات معلومة من الليل والنهار،حتى لا تسهو عن ذكره،وباب النوافل مفتوح بعد ذلك لمن شاء مزيدا من الإحسان.»

وهذا الركن من الدين لا يسمح للمرء أن ينسى ذكر ربه طويلا،حتى يرده السجود إلى الخشوع والتقوى،فيخرج إلى الناس والكدح والسعى فى طلب الرزق،وبه أثارة من الخشية تنهاه عن البغى والمنكر،ولا خير فى صلاة بذهن شارد

وقلب بارد لا تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾

إنه نظام واحد يمسك الدين والدنيا، ويسلك المعاش والعبادة والمعاد، ولهذا قلما يرد ذكر الصلاة فى القرآن من غير آثارها العملية، من اتقاء الله فى الضعفاء، والإحسان إلى ذوى القربى واليتامى والمساكين وأداء الزكاة للمعوزين، والتعفف عن الفسوق، فجاء فى سورة المؤمنون: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾.. وجاء فى سورة المزمل: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾.

وليست أى صدقة تعد إحسانا.. كلا: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ۝٢٦٣ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، وبئس الصدقة ما كان رئاء الناس وبئس الصلاة ما كانت رئاء الناس فلا تجعله رحيما عفيفا: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾.

صلاة هذه شأنها تتكرر فى اليوم خمسة مرات، لا يلهى عنها بيع أو شراء، إنها إذن لسبب قوى بين الإنسان والله، ومن يفعل ذلك: ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾، ولكن أين تكون تلك الصلاة؟ هل لابد فيها من وساطة رجال الدين؟.. هنا تبرز خصوصية الإسلام فى أمر الصلاة التى تقف بالمرء بين يدى الله جملة مرات فى كل يوم.

كل مكان فى أرض الله الطاهرة يصلح مسجدا ومحرابا، لا هياكل بعد اليوم، ولا

كهانة بعد اليوم،ولا وسطاء بين الله والإنسان بعد اليوم،ولا وصاية على ضمائر الناس نفكلهم أمام الرحمن سواء،والصلة بينهم وبين ربهم صلة مباشرة لا أمت فيها ولا التواء،فمن شاء اتخذ لنفسه سبيلا إلى ربه:﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ،وليس من حق كائن من كان أن يتدخل بين المرء وربه أو يدعى لنفسه القوامة على ضميره وعقيدته.

وهنا يتوقف نظمى وقفة يرى أنه لابد منها.

يقول:«إن السيد المسيح أعلن الحرب على مظهريات اليهودية،وهدم شكليات الطقوس،ونادى بعبادة الضمير النقى،وقال لمن يريد الصلاة أن يدخل مخدعه ويغلقه عليه ليصلى،إنى أعتقد أن المسيح نقض الكهانة؛لأنها تناقض عبادة الضمير،والصلة الخالصة المباشرة بين الإنسان والله،وأعتقد أن كل ما التصق بالمسيحية بعد ذلك كان من عمل تابعيه،أما هو فلم يرد فى نصوص و أقواله ما يبرر قيام الملكوت.

إن من يطلب الناس أن ينادوا الله بقولهم:«يا أبانا الذى فى السماء»،كيف يمكن أن يجيز وسطاء بين الأب والأبناء،إن قلب المؤمن هو هيكل الله الحق،ولا مكان فى هذا الهيكل إلا لضمير صاحبه وإيمانه.

(١١)

يجزم نظمى لوقا بأنه لم يبق هناك أى شك فى أن رسالة الإسلام جاءت مناسبة لطور البشرية الطبيعى،فقد جاءت متلافية أوجه الغموض فى عقيدة الإلهية وأوجه العسر والعنت وأوجه إغفال الدنيا وفطرة البدن والروح فى كيان واحد،ثم مع هذا لم يقفل باب الاجتهاد فى السمو الروحى،فما كانت دعوة تهوين أو إسفاف،بل دعوة اتساع فى الأفق وشمول فى النظر،يأخذ كل إنسان منها على قدر طاقته،ثم هو متروك

فى أمر طاقته لضميره وسريرته أن يقول صادقا: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾.

فالمعول عليه السريرة والنية والصدق،فهذا الدين – كما قال – رسوله «يسر لا عسر»،وهو دين متين «فأوغل فيه برفق»،لا زيف فى هذا الدين إذن،وهو ملب حاجة البشر كافة،سوادهم وخاصتهم،لا مسخ فيه ولا إضفاف،ولا عسر فيه ولا إجحاف،وإنما هو صراط مستقيم،لا إعنات فيه للفكر السليم والبداهة السديدة.

لقد أثبت هذا الدين نفسه دين هداية بالحق،وارتفاع بقيمة العقل عن الانسياق وراء المسميات والخوارق الغريبة عن طبيعة معدنه فى الاقتناع والتصديق،ورد اعتبار البدن بوصفه هيكل الروح،فهو ليس مصدر خطر لصاحبه،ولا هو بالرجس وإنما الرجس فى مقارفة المحرمات المحددة شرعا،وفى الإضرار بالنفس أو الغير،وبغلبة الشهوة على صاحبها،فصاحب الرسالة هو القائل:«إن لبدنك عليك حقا».

هو دين يسع الناس كافة ويهديهم كافة،ولكن حذار أن يظن ظان أن دعوة الإسلام استهوت الناس بتملق غرائزهم أو رشوة منافعهم وأثرتهم،أو إباحة الأهواء والشهوات،فإن ذلك يكون ضلالا كبيرا،وجنوحا إلى عكس مضمون تلك الدعوة.

إن الرسالة الإسلامية جاءت تنظيما لحياة الناس،بحيث يخرجون عن دائرة المنفعة الذاتية والأنانية بكل توابعها من الشهوة والهوى والقسوة والظلم والإباحية،فرضت على المرء أن يعمل وجعلت قيمته وشرفه معلقين بعمله،وسيرى عمله الله والرسول والمؤمنون،وفرضت الزكاة على الأموال،وجعلت للفقير فى عنق الغنى حقا مفروضا هو الصدقة،وفرضت الصفح والعفو،ومحت الثأر والشحناء،وفرضت الصلاة والصيام وحرمت البذخ والسرف،وفرضت التواضع

وحرمت الخيلاء،وأحلت الزواج وحرمت الزنا،وضيقت زواج الجاهلية فجعلت أقصاه أربعا،وحضت على زواج الوحدة،وفرضت الأخوة والمساواة وألغت العصبية والاستعلاء بالنسب والجاه،وحرمت الخمر وكل ما يخمر العقل فهو خمر،وحرمت الفسوق والتجبر والميسر والعدوان على حقوق الناس وأعراضهم.

فلئن قيل :إن الإسلام اعترف بحق البدن،فإنما يقال ذلك بوجه معين،أنه لم يغفل عن وجود البدن وفطرة الله البشرى ذوى أبدان،لا ملائكة من نور،فهو دين حصيف شامل،لا يرهق الناس من أمرهم عسرا،ولكنه إذ يمتنع من الغلو فى إنكار الجسد،لا يغلو فى إطلاق العنان له،بل إنه يلزمه حدوده،ويجعل الزمام فى يد العقل كى يسلك صاحبه مسلكا طاهرا،يتمتع بالطيبات مما أحل الله،شاكرا له نعمه،مبتغيا رضوانه،فذلك البدن أشبه ما يكون بمطية أحرى براكبها أن يرتحلها إلى كل ما هو طيب،ويتنكب بها كل ما هو خبيث من المحارم،فإذا نظرنا إلى الرسالة الإسلامية وجدناها أبعد ما تكون عن شبهة تملق الشهوات،أو إباحة الأهواء،ورشوة المنافع.

كان العرب فى الجاهلية أهل إباحة،لا وازع ولا رادع،قصفهم مجون ولهوهم فجور وحياتهم عدوان وكسبهم سحت وليلهم خمر وميسر،فكيف يقال عن دين اقتلع جذور هذا كله ووضع الحدود لكل وجه من وجوه النشاط البشرى أنه استدرج هؤلاء بما تملقه من غرائزهم وما أباح لهم من مباذلهم؟،إن لم يكن هذا هو التنظيم والتضييق والسمو،فماذا عساه يكون؟

ما فعل الإسلام إلا أن اعترف للمرء بحق الحياة التى يراه الله فيها وركب فيه فطرة حبها وطلبها،فاستطاع الإنسان أن يعيش غير مضطرب أو متأثم من طبيعته السوية،وقد رسمت له حدود تتفق وواقع فطرته،وتسمح له بالتسامى ما استطاع،ومن لم يستطع فلا تثريب عليه،وفى رحمة الله الذى خلقه وعرف ضعفه.

ومن سمى هذا التوسيع لباب رحمة الله،والاعتراف بفطرة الله التى فطر عليها بنى آدرم،إباحة أو تملقا للشهوات،فإنه إذن لغالط أو مخالط،أترى إن قيل للناس،لا تتنفسوا،أيكون ذلك معقولا مقبولا،وتكون إباحة التنفس تملقا لأهوائهم أو رغباتهم؟

بل ذلك هو تقدير الاستطاعة وعدم قطع الناس عن رحمة الله،فلا تكون لهم حجة بعد فى تعدى حدود العقيدة وقد نظرت إلى حقيقة طبائعهم بغير إعنات،وهذا هو القسطاس الحق فى تنظيم أمور الناس من غير تحيف بحيث يطيق كل منهم تسويد العقل والروح على نوازع نفسه،ومن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا،وما جاء الرسل بالأديان بلاء للناس بل رحمة.

(١٢)

وبعد الرسالة وحدودها ومداركها،يصل نظمى لوقا إلى الرسول،يقول:«أول مقياس يقاس به صدق صاحب رسالة هو مبلغ إيمانه بها متى امتحنته الخطوب ولقى فى سبيلها العنت والبلاء والاضطهاد،إن الرسالة التى تسير بصاحبها على مهاد من الود،ويكون هدفها الغنم له أو لذويه ولا تدل على إيمان،بل على وصولية وطمع وطموح،وأيا كان المقياس الذى تقاس به دعوة الإسلام،فلن نجد فيها دليلا واحدا ولا شبه دليل على أن الغرض منها كان خدمة شخصه من قريب أو بعيد».

لقد كان الرسول موفور الرزق موسعا عليه،فبدل من ذلك ضيقا وشظفا،كان آمنا فى سربه،فبدل من ذلك قلقا ومطاردة وارتياعا،كان موفور الكرامة والمكانة بين قومه،بالنسب الرفيع والحسب المنيع،فبدل من ذلك إهانة وتحقيرا وازدراء.

كان وحيدا أعزل لا أمل له فى نصرة أحد على قومه،وهم أئمة الشرك وحراس الكفر وأولياء عاصمته المستفيدون منه،أما أهله فما كانت هذه الرسالة بأنفع

لهم،وأوذوا بسببها فى أرزاقهم وفى أعمالهم وفى أشخاصهم،وتعرضوا لما تعرض له من التهلكة أكثر من مرة،وما كان مضمون الدعوة حين يكتب لها النجاح ليضفى عليهم شيئًا من المنافع،فهذا الدين لا يجعل لرسوله مرتبة فوق مراتب البشر أو حظا من نعيم الدنيا ومتاعها فوق حظوظ سائر الناس فضلا عن آله.

كلا فهذه نبوة وليست ملكا ولا وراثة فى النبوة،كلا بل هذا الدين يمحو ما كان لقبيلة هذا الرسول،قبل ذلك من سيادة وامتياز وطيد الأركان،فالناس فى هذا الدين سواسية كأسنان المشط،وهذا الرسول هو القائل :إنه لا فضل لعربى على عجمى ولا لقرشى على حبشى إلا بالتقوى،وإن عصبية الجاهلية موضوعة.

دعوة لا تحمل لصاحبها بموازين الدنيا جميعا إلا الخسران،ولا تحمل لقومه – على افتراض نجاحها وظفرها – إلا ذهاب الرئاسة وضياع الجاه،بل وحين كتب لهذه الدعوة الظهور وتم الفتح المبين،ولم يظفر صاحبها بمغنم،ولم يكن حظه من إقبال الدنيا إلا أقل من حظ عامة جنده وفقراء رعيته،لم يجعل لفئة من الناس فضلا على فئة،بل صار الأمر كله للمؤمنين كافة.

لا منفعة إذن ولا شبه منفعة لصاحب هذه الرسالة من بداية دعوته حتى المنتهى،ولا تسخير للدعوة لخدمة مآرب ذاتية أو أهواء حزب من الناس أو فئة،وصح إذن أنه ما كان ينطق عن الهوى وأنه :﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ [النجم:٢] ،هى من هذا الوجه دعوة مبدأ وإيمان،وليست مطية هوى،هذا الإيمان بماذا يقاس إن لم يكن مقياسه الثبات عليه فى أشد الظروف حلكة وأدعاها لليأس؟وإن لم يكن مقياسه الصبر فى سبيله على المكاره؟..وإنها لمكاره من كل نوع،لعل المعنوى منها أقسى من المادى،ولعل حرج النفس فيها أعتى من الضرب والإيذاء البدنى بالغا ما بلغ من العنف.

لم يساوم هذا الرسول ولم يقبل المساومة لحظة واحدة فى موضوع رسالته،على

كثرة فنون المساومات واشتداد المحن،ولعل كلمته التى قالها لعمه أبى طالب تكفى:«يا عم ..والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته»...من كابر فى صدق هذا الإيمان فهو مسكين لا يميز الإيمان من الدجل،ولا الصدق من الهزل.

لا مساومة وكيف يساوم من لا يملك من الأمر شيئا،ها هو يدعو القبائل فى موسم الحج إلى ربه،يقف بمنازلهم،فمنهم من يعرض عنه ومنهم من يسخر،وها هو يقف على منازل بنى عامر،ويتكلم فى يقين وبسلطان،وأى سلطان أعلى من سلطان اليقين بالعزيز ذى الجلال؟

ويبهر كبير القوم بما سمع،ويراها فرصة يجدر به أن يهتبلها عسى أن تكون لقومه بذلك الداعى رئاسة أو يحدث لهم ذكرا ،فيقول له:أى محمد أفإن اتبعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟

هذه مساومة معقولة لدى امرئ يعرف المساومة،فإنه يطلب إلى قوم أن يتبعوه ويمنعوه حتى يبلغ أمانة الله ويؤمن به الناس كافة وفى ذلك البلاء والمشقة ما فيه،بل فيه من الهلاك للأنفس والأموال ما فيه،وفى منطق المساومة وتبادل المنافع لابد من مقابل لكل خدمة تؤدى منفعة ترجى،فليكن الأمر إذن كما يطالب به شيخ بنى عامر نفوذ عرض معقول،يصلح أساسا على كل حال للمدارسة بين الطرفين.

لكن نظمى لوقا يرى أن محمدا لا يساوم،وإن كان مأمورا ليس له من الأمر شئ،لا يرى الإيمان بالله منة للمؤمنين على الله ورسوله،بل منة لله على المؤمنين،هداهم من ضلال،ونصر الله حق عليهم،كفاه هذا الفضل العميم،وشتان بين هذا المنطق ومنطق المساومة،وكان محمد مطاردا وحيدا لا يكاد لدعوته سميعا،وكان محمد مطاردا لا يجد مانعا ولا نصيرا.

لكن محمدا لم يقبل المساومة فى أمر هو من شأن الله وحده،وهو لا يملك من الأمر شئيا،الأمر لله يضعه حيث يشاء،ما هذا قول مغامر مساوم مداور،هذا قول لا يصدر إلا عن شجاعة إيمان نادر،سلطان إيمانه عليه قاهر،لا حيلة له فيما يأخذ وفيما يدع.

(١٣)

ومن الشجاعة إلى الصدق،فمن لم يكن صادقا فى دعواه،فهو دعى لا يسلم من أعراض الإدعاء مهما تصنع الصدق،وتجتمع أعراض الإدعاء فى انتحال صفة أو قدرة أو حق ليس للمرء حقيقته،يقول نظمى:«ما كذلك كان أبو القاسم ..لم يزعم لنفسه قدرة أو صفة أو حقا يستعلى به على أحد،أو يرتب لنفسه بها سلطانا أو تقديما،ولو كان القرآن من صنعه ما حرص على أن يكون فيه كآحاد الناس لا يزيد،ليس عليه إلا البلاغ....عليه البلاغ..ولكن أى شئ له؟..لا شئ ..ثم لا شئ..ثم لا شئ..﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾..﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾.. ..﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾.

كان محمد امرؤ عليه وليس له،أين من ذلك دعوى الأدعياء؟ولما طولب بالمعجزات لم يتوجه إلى ربه ليسأله أن يؤيده بخارقة بل خوطب مأمورا بما يقول لـــــــؤلاء: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾....و ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ .

لا دعوى ولا ادعاء،ولا مظاهرة من الخوارق والبوارق،وإنما الهداية إلى ما تطمئن به النفس ويستريح إليه العقل: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾...أفلا تتفكرون، بحجة الفكر الناشط من عقاله تقدم أبو القاسم إلى الناس ولا حجة له سوى هذا،فما هو بصاحب معجزات،ولا هو يمنى الناس بخزائن لا يملك

مفاتيحها إلا الله،ولا يعدهم بدفع السوء عنهم وهو غير قادر على دفع السوء عن نفسه،ومن لم ينفعه عقله فى الاهتداء إلى سواء السبيل وتمييز الحق من الضلال،فهو أعمى : ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ ،وليس بنافعه إذن خوارق المعجزات.

بل إن هذا الرسول حينما وقعت له تجربة الوحى أول مرة وهو يتحنث فى غار حراء صائما،قائما يقلب طرفه بين الأرض والسماء،جياش النفس منقطعا عن أهل مكة بما هم منصرفون إليه من الدنيويات والقصف والمتاع الحسى الغليظ،لم يأخذ هذه التجربة مأخذ اليقين،ولم يخرج إلى زوجه خروج الواثق بها المتلهف على شرفها،بل ظن ذلك فى أول مرة رؤى من الجن،وارتعدت فرائصه من الروع وقد ثقلت على وجدانه تلك التجربة الفذة الخارقة،ودخل على خديجة وكأن به رجفة الحمى فدثرته ونام مطمئنا إلى أمومتها الحانية بعد أن وعدته بالرجوع إلى قريبها ورقة بن نوفل وهو من نصارى العرب،الذى قال له:قدوس قدوس،والذى نفس ورقة بيده لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى.

لم يكن حال محمد حال دعى يلفق دعوى للناس لا يؤمن بها،ليس هذا هو حال المتصدى لأمر عن هوى،ليس هذا حال ملفق دجال،بل هذا حال المتصدى لأمر عن هوى،ليس هذا حال ملفق دجال،بل هو حال رجل لا يريد أن يصدق ما تراءى له،إلا ببرهان ويقين،فقد فوجئ بما وقع له وتولاه الروع والفزع،هو إذن تكليف لا تأليف،وهو تكليف مر شاق.

ما قاله محمد لم يكن قول مغامر دعى أفاق يلتمس مغنما ويرسم خطة للكسب،أو يهتبل فرصة مواتية للظفر،بل هذا يقول من يرى نفسه مأمورا بما لا يكاد يطيق،والطريق أمامه مسدود،فمن ذا يدعو فى عاصمة الأوثان إلى عبادة الله؟ومن ذا يستجيب له بين سدنة تلك الأوثان؟ولأن هذا الحائر المتحسر لا يدرى بعد خطورة

ما هو بسبيله،شأن من دبر أمرا وبيته بليل وحسب حساب العواقب،وإنما هو فارغ الذهن من ذلك كله،لا يحز به إلا من يدعوه إلى ربه ومن ذا عساه يستجيب لتلك الدعوة التى ألقيت على كاهله إلقاء.

لقد كانت الكلمة التى قالها لورقة بن نوفل:أو مخرجى هم،عندما أخبره أنه ما من أحد جاء بمثل ما جئت به إلا وأخرجه قومه،هذه الكلمة تحديدا كافية وحدها عن مدى خلو باله من غاية الشوط الذى أمر أن يأخذ فيه،وأنه لم يفكر فى ذلك من قبل ولم يعد له عدته،ولم يوازن بين فرص الربح وفرص الخسران وبين جانب الفوز وجانب الخذلان،وبين الثمن الذى يزمع أن يدفعه سواء خذل أو ظهر،أجل هذه الكلمة وحدها عنوان براءة محمد من تهم الادعاء والتدبير المبيت لما يزعمه وحيا وتكليفا،لو نظر فيها من له قلب سليم من الأهواء.

لقد شرع محمد كما أوحى إليه ينذر عشيرته الأقربين،وآمنت خديجة به فكانت أول المؤمنين،ثم انتظر محمد أن يدله الوحى على ما يفعل لإنذار الناس ومحاجتهم وهدايتهم،فإذا الوحى يبطئ عليه،حتى ظن أنه كان مخدوعا فيما تراءى له من قبل،أو أن ربه انصرف عنه بعد بعد أن اصطفاه وتملكه فزع ووجل.

وطال انقطاع الوحى،وهو حائر يتردد بين حراء ودروب الصحراء،واشتد به الأمر حتى ظن أن ربه قلاه،فحزن واغتم وراود قلبه اليأس لولا أن ظهر له الوحى ونزلت عليه سورة الضحى المشهورة: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾.

عجبا ففيم هذا العذاب كله لو كان محمد واضع القرآن مدعيا ملفقا؟ ما كان

أغناه عن فضيحة فتور الوحى لو لم يكن أمينا غير متصنع ولا مموه،وإنما هو الصدق الصراح بغير تعديل أو تحوير.

إن الصدق يبدو من أنه لا يوجد دعى إلا وهو مطية الشعور بالنقص،فيدفعه ذلك إلى المغالاة فى شأن نفسه،والتزيد فى مدى قدرته،وما كذلك كان محمد،مر بقوم على رؤوس النخل فقال:ما يصنع هؤلاء،فقالوا:يلقحون ..يجعلون الذكر فى الأنثى فتلقح،فقال:ما أظن يغنى ذلك شئيا،فأخبروا بذلك فتركوه صادعين برأى الرسول،ونقصت غلة النخل ذلك العام وخرج شيصا،فذكروا له ذلك فقال:إنما أنا بشر،إذا أمرتكم بشئ من دينكم فخذوا به،وإذا أمرتكم بشئ من رأيى فإنما أنا بشر،أنتم أعلم بأمور دنياكم،وقيل أنه قال:ظننت ظنا،فلا تؤاخذونى بالظن.

لم يرتج عليه ولم يكابر،ولم يشؤه أنه أخطأ الظن،بل اعترف أنهم أعلم بشئون دنياهم،وما هكذا يكون موقف دعى يستولى عليه شعور النقص،وهو أبين الأمراض التى تنتاب الأدعياء.

(١٤)

ويأتى نظمى لوقا إلى الجهاد الأكبر،يقول:«الجهاد الأكبر هو جهاد النفس،هو قائلها،وإنه فى ذلك الجهاد لفارسه الملعم،وبطله الذى لا يشق له غبار،رجل فرد هو لسان السماء،فوقه الله لا سواه،ومن تحته سائر عباد الله من المؤمنين،ولكن هذا الرجل يأبى أن يداخله من ذلك كبر،بل يشفق،بل يفرق من ذلك،ويحشد نفسه كلها لحرب الزهو فى سريرته،قبل أن يحاربه فى سرائر تابعيه».

ولو أن هذا الرسول بما أنعم من الهداية على الناس وما تم له من العزة والأيادي،وما استقام له من السلطان،اعتد بذلك كله واعتز،لما كان عليه جماح من أحد؛لأنه إنما يعتد بقيمة ماثلة ويعتز بمزية طائلة.

ينظريه قول أصحابه بالحق الذى يعلمون عنه،فيقول لهم:لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم،إنما أنا عبد الله،فقولوا:عبد الله ورسوله،ويخرج على جماعة من أصحابه فينهضون تعظيما له،فيناههم عن ذلك قائلا:لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا.

ويمرض المريض من أدنى الناس فيعوده،ويموت طائر يلعب به طفل هو أخو خادمه فيعزيه فى مصابه،وقد يدعوه عبد أو مسكين إلى طعام فلا يمتنع،ويداعب الأطفال من أبناء تابعيه وأصحابه ويجلسهم فى حجره،ويمازح أصحابه ويتبسط فى الحديث معهم،ويعنى نفسه بقضاء حاجة الفقير والضعيف،ويؤاكل خدمه ويشاربهم،ويحمل عنهم أعباء عملهم فى البيت وغير البيت،وكان حفيده الحسن بن على بن فاطمة الزهراء يركب ظهره وهو يصلى بالناس ساجدا،فيظل على سجوده حتى لا يعجله لينزل عن ظهره،وقد ينهض لخدمة ضيوفه بنفسه تزيدا من إكرامهم،كما فعل بوفد نجاشى الحبشة.

ذلك هو الرسول الذى خاطبه الله فى القرأن قائلا:﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ،وأى خفض جناح أكثر من عمله وقصاصه من نفسه كلما كان لديه حق؟.

أما زهد محمد فيقول عنه نظمى:«وزهدك يا محمد؟..زهدك وقد أحلت لأمتك الطيبات وحببت إليك،هذه أم سلمة زوجتك تصف ما وجدته فى دارك ليلة عرسها:نظرت فإذا جرة فيها شئ من شعير،وإذا رحى وبرمة وقدر وقعب،فأخذت ذلك الشعير فطحنته،ثم عصدت البرمة،وأخذت العقب فأدمته،فكان ذلك طعام رسول الله صلى الله علسه وسلم،وطعام أهله ليلة عرسه».

وكل كلام بعد هذا الوصف الساذج الصادق فضول غث فى التعليق على زهد

الرجل الذى لم يؤت أحد فى زمانه سلطانا على أصحابه كما أوتى،ولولا أنه يرى برهان ربه رأى العيان،فتصغر فى عينيه الدنيا وما فيها،ويؤثر على آله ولو كان بهم خصاصة،ولا يدخر لغده شئيا،أليس قد مات ودرعه مرهون عند يهودى فى قوت عياله؟ ومن هو؟هو السيد غير منازع،وقد أوتى الفتح المبين،وعنت له رؤوس المعاندين،ولكنه كان مشغولا بأن يسود نفسه بأن يسود الناس.

لهذا كان ينام على حشية من ليف،ولم يبلغ من طعام حد الشبع،ولم يطعم خبز الشعير يومين متواليين،وجعل طعامه التمر،لا يتفق له ولآله أكل الثريد كثيرا،وكم من مرة ربط على بطنه حجرا ليقاوم الجوع حين يشتد عليه،وهذه عائشة أصغر زوجاته وآثرهن لديه بعد خديجة تصف طعام زوجها العظيم الذى لم يؤت كسرى ولا قيصر مثل سلطانه على قومه:«ولم يأكل النبى خبزا مرققا،ولا أكل خبزا نقيا،وقد جاءت إليه فاطمة ابنته بكسرة خبز فقال:ما هذه الكسرة يا فاطمة؟قالت:قرص خبزته فلم تطب نفسى حتى آتيك بهذه الكسرة،فقال صلى الله عليه وسلم:أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام».

قمة شاهقة فى الزهد لا يطيقها كثيرون،فلا عجب أن نرى زوجاته يتضجرون بهذا الصادق،وهو الذى يملك خمس الغنائم بشريعة القرآن،فيهلك ذلك فى الصدقات ولا يستبقى لآله من الطيبات شئيا،حتى يتحسرن على ما يوقد به السراج ليأكلنه عسى أن يرد عنهن غائلة الجوع،وهن يرين زوجات أدنى المسلمين شأنا أوسع منهن رزقا وأحظى بالرفاهية والزينة،وصارحنه بما فى نفوسهن من الضيق بهذا الضنك،فآلى أن يعتزلهن جميعا شهرا من الزمان،حتى تحدث الناس أن النبى طلق أزواجه،وذهب النبى فعلا يخبرهن بين الطلاق والرضا بما أخذ نفسه به من المعيشة،وليس يعنينا هاهنا أنهن جميعا اخترن الحياة معه على الوجه الذى يريد لنفسه

ولمن،فما كان يدرى شئيا من هذا حين خيرهن ذلك الخيار،بل كان مواطنا نفسه على أنهن قد يخترن ما تصبو إليه نفوسهن من زينة الحياة الدنيا،وكان مستعدا لهذا الموقف مؤثرا زهده على كل شئ.

وعمر الزاهد المخشوشن ليس فى زهده إلا تلميذا لهذا الزاهد المطبوع،وقد رآه يوما وقد أثر فى جنبه الحصير،وفارس والروم قد وسع عليهم وهم لا يعبدون الله؟،فاستوى النبى جالسا وقال:أفى شك أنت يا بن الخطاب؟أولئك قوم قد عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا!،ذلكم هو الرجل الذى كان الزهد عنده طبعا لا ضرورة،وغنى نفس لا فقرا ولا عجزا،فإنه كان أقدر القادرين على البذخ،لولا أن الاقتدار على نفسه كان مقدما عنده على الاقتدار على المناعم والطيبات.

ومن بين جهاد النفس مقاومة محمد لفتنة السلطان،يقول:«ما رأيت رجلا لم تغيره بوادر النفوذ ولم تدر رأسه خمر السلطة،فإذا خيلاء وصيد تتغنى له النفس،حتى ليصدقنى فيهم قول القائل:إنهم ينحطون باطنا كلما ارتفعوا ظاهرا،وإن فيهم الفتى الغر الذى لا يحسن من أمر نفسه شئيا فضلا عن أمور الناس،وينتفش بما ألقى إليه من فتات الأمر والنهى كأنه الديك الرومى،أو يتثاقل فى خطوه وقد برز صدره ورأسه،كأنه يتأهب للنطاح.

وما سلطان هؤلاء الأغرار الهلافيت فى جانب ما أوتيت أنت من السلطان يا أبا القاسم،يا لسان السماء ويا حاكم الدنيا،ويا من لا يعلو سلطانك على أتباعك من بنى آدم سلطان،فليس فوقك إلا المهيمن الأحد،هباء سلطان أولئك جميعا مهما علوا واستطالوا إلى جانب سلطانك أو أهون من الهباء،وما فتنك سلطان،وقد انتهيت من العنت والبأس والحصار والمطاردة إلى النصر المؤزر والفتح المبين والطاعة العمياء والسؤدد الذى لم ينبغ لأحد من قبل ولا من بعد.

ويختم نظمى كلامه عن فتنة السلطان بقوله:«إنى والله لأخجل من قوم أراهم بعد ذلك يأخذهم الزهو بالمنصب ويركبهم الافتتان بالسلطان،وأنا أتمثلك فى هذا الموقف الذى لا تدانيه فى علوه وقفات العواهل الفاتحين،وإن مجد هذه الكلمة وحدها ليرجح فى نظرى فتوح الغزاة كافة،وأبهة القيا أجمعين.وأنت بأجمعك فى هذه الكلمة ..وما أضخمها أيها الصادق الأمين.

(١٥)

ويصل نظمى لوقا إلى المحطة الأخيرة،يقول:«ماذا بقى من مزاعم لزاعم؟...إيمان امتحنه البلاء طويلا قبل أن يفاء عليه النصر،وما كان النصر متوقعا أو شبه متوقع لذلك الداعى إلى الله فى عاصمة الأوثان والأزلام،وعقيدة جاءت فى طورها الطبيعى ملبية حاجة الإنسان الطبيعية،موفقة بين دينه ودنياه،ومتلافية تلك القسمة المسقمة بين الروح والبدن ،فى السر والعلن،ونزاهة ترتفع فوق المنافع،وسمو يتعفف عن بهارج الحياة،وسماحة لا يداخلها زهو أو استطالة بسلطان مطاع».

لم يفد ولم يورث آله،ولم يجعل لذريته وعشيرته ميزة من ميزات الدنيا ونعيمها وسلطانها،وحرم على نفسه ما أحل لآحاد الناس من أتباعه،وألغى ما كان لقبيلته من تقدم على الناس فى الجاهلية حتى جعل العبدان والأحابيش سواسية وملوك قريش،لم يكن لنفسه ولا لذويه،وكانت لذويه بحكم الجاهلية صدارة غير مدفوعة،فسوى ذلك كله بالأرض.

أى قالة بعد هذا تنهض على قدمين لتطاول هذا المجد الشاهق،أو تدافع هذا الصدق الصادق،ما نطق هذا الرسول عن الهوى،ما ضل هذا الرسول وما غوى،وما صدق بشر إن لم يكن هذا الرسول بالصادق الأمين،فسلام عليه بما هدى من سبيل،وما قوم من نهج،وما بين من محجة،وسلام على الصادقين.